محمد بن نصر القيسراني

حياته وشعره

بقلم : فاروق انيس جرار

رسالة قدمت الى دائرة الدروس العربية في

كلية الاداب والعلوم بجامعة بيروت

الاميركية لنيل شهادة

استاذ في الآداب

بيروت ، لبنان

١٩٦١

محمد بن نصر القيسراني

حياته وشعره

مقـــــــدمة

درج الدارسون على اعتبار أدب الحروب الصليبية بداية عصر الانحطاط الادبي . وقد كان لهذه التسمية الخاطئة أثرها في صرف اذهان متذوقي الادب بعامة والباحثين فيه بخاصة عن الخوض في دراسته ، ومحاولة تمهيد مسالكه الوعرة وانارة سبلها .

وعندما كنت اعمل في دراساتي التاريخية في عصر الحروب الصليبية ، لفت اهتمامي شعر القيسراني ، فاخذت انقب في الكتب المصادر عن شعره ، واسأل العلماء اهل الاختصاص .

وقد كان سروري عظيما عندما علمت بان للقيسراني ديوانا محفوظا في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، فبعثت في طلب صورة فوتوغرافية عنه كانت بداية انطلاقي الى دراسة الشاعر والشعر .

ولما بدأت في هذه الدراسة برزت امامي صعوبات عدة .

أولاها افتقار المكتبة العربية الى دراسات علمية منظمة في ادب هذه الفترة - فما ألف في الموضوع من امثال : "ادب الحروب الصليبية" للدكتور عبد اللطيف حمزة ، و "الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام" للدكتور احمد احمد بدوى ، و "الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي في مصر والشام" لمحمد سيد كيلاني ، لا تخضع في معظمها لمنهج الدراسة العلمية الموثوقة ، ولا تخرج عن كونها منتخبات ادبية وملتقطات من كتب شتى ، يتفاوت حظها في التنسيق والضبط .

وثانيتها صعوبة الحصول على المصادر ، فالكثير منها مخطوط تضمه زوايا مكتبات تتباعد اقطارها ، والمطبوع منها يعوزه ، بغالبيته ، النشر العلمي .

وثالثتها تفرق شعر القيسراني في المصادر ، وما يتبع هذا من مضاعفة الجهد في محاولة جمعه وتحقيقه .

وبعد الفراغ من هذا البحث الذى حاولت ايفاءه حقه ما وسعني جهدى ، لا ادعي له الكمال والتقصي ، وكفى به ان يكون خطوة اتمنى أن تتبعها خطوات على يدى من هم اكثر مني مقدرة وارسخ مني علما ، وكفاني اجر واحد .

ولا يسعني الا تقديم عظيم شكرى وعميق امتناني للاساتذة الاجلاء أعضاء الدائرة العربية اقرارا بفضلهم علي ، واخص بالشكر الدكتور نبيه امين فارس الذى آثرني بعطفه وعمل جاهدا في سبيل الحصول من اجلي على مساعدة دراسية لسنتين متتاليتين لاتمكن من متابعة دراستي في الجامعة ، والدكتور محمد يوسف نجم المشرف على رسالتي ، الذى كان لي ، طوال سنوات خمس شرفت فيها بالطلب عليه ، مثال العالم المرشد والاخ العطوف والصديق الحق ، وكان لي من رحابة صدره وحسن نصحه خير معوان على المضي في هذا البحث .

وبعد ، اسأل الله ان يكون هذا البحث لبنة متواضعة في صرح الدراسات الادبية ، واطلب اليه تعالى ان يتجاوز عن سيئاتي فيه ، وهو ولي التوفيق .

بيروت ، غرة حزيران ١٩٦١

فاروق جرار

فهـــــرس المحتويـــــات

المــــــــدخل

- الحياة السياسية في منطقتي الشام والموصل قبل الحروب الصليبية واثناء الحملة الاولى

- الحياة الاجتمــــاعية

- صورة عامة للشــــعر

الحيـــاة الســـياسية

في منطقتي الشام والموصل قبل الحـــروب الصليبية واثناء الحملة الاولى

ان الناظر في تاريخ منطقتي الشام والموصل في هذه الفترة ـ اعني قبـــل بداية الحروب الصليبية واثناء الحملة الاولى منها ـ لا يفوته ان يلحظ ما تحفـــــل به من اضطراب سياسي شامل • فالبلاد مجزأة قطع اوصالها ولاة لا يقرب بـــين قلوبهم الا هدف الكسب ولا يتورع ايهـــم عن سلوك كل سبيل يوصله الـــــى مبتغاه• ومظاهر الاضطراب في هذه الفترة يمكن ردها الى عوامل ثلاثة :

١) تنابذ الأمراء

٢) الخطر الخارجي ـ الصليبيون

٣) الخطر الداخلي ـ الباطنـية

وسنعرض باختصار لكل من هـــــذه •

تنابذ الامراء : يكاد تاريخ هذه الفترة ان يكون سجلا لعدوان امــــــراء المناطق أو المدن بعضهم على بعض سعيا وراء كسب مادى او توسيع رقعـــــة حكمهم ، وقد ظل هذا التنافس والخلف بينهم حتى بعد ان ووجهوا بخطـــر مشترك هو الفرنج • لذا بلي الناس بما كان امراؤهم عليه ، وساءت حالـهـــــم • ولعل اصدق تصوير لما وصل اليه الحال ما اورده ابن القلانسي :

" وردت الاخبار بما اهل خراسان والعراق والشام عليه من الخـــــلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد وخوف بعضهم من بعض لاشتغال الـــولاة

عنهم وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة ٠[١] .

كانت البلاد امارات وممالك مجزأة ، فالخلافة العباسية في بغداد لا يتعدى سلطانها مدينة بغداد وما حولها ، والحكم في يد السلاطين من الاتراك السلاجقة ٠ والموصل وديار ربيعة وديار بكر وحلب في يد أمير يحكمها في طاعة السلطان السلجوقي ، والقدس ومعظم الساحل الشامي في ايدى ولاة في طاعة الخلافة العلوية في مصر ، ودمشق ظل يتناوب عليها الولاة آنا من قبل السلاطين السلجوقية وآنا آخر من قبل الخلفاء العلويين حتى لقد صح فيها قول احد الظرفاء الدمشقيين :

أهل دمشق استرابوا — من كثرة الحكام

فهم جميعا شموس — وحالهم في ظلام [٢]

الى أن استقرت في النهاية في يد تاج الدولة تتش التركي سنة ٤٧١ ٠ وكان هناك في الشام بعض الحصون التي استقلت بها عائلات امتد حكمها عليها زمنا كحصن شيزر الذى كان في حكم بني منقذ وحصن جعبر الذى كان في حكم بني عقيل ٠ وقد ظل الولاة في تطاحن مستمر ، لا يحدد مفهوم الصداقة والعداوة بينهم الا مقدار ما في الامر من كسب يحرزونه ، فقد جاء سليمان ابن قتلمش صاحب قونيه وغيرها وحصر انطاكية — بناء على دعوة اهلها بعد خروج صاحبها الرومي متوجها الى بلاد الروم — واستولى عليها سنة ٤٧٧[٣]٠ ولم يعجب الحال مسلم بن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل والجزيرة وحلب ، وقد كانت له جزية سنوية يأخذها من صاحب انطاكية الرومي — فارسل الى سليمان

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٠

(٢) امراء دمشق : ١٠٣

(٣) ذيل تاريخ دمشق : ١١٧ ، والاتابكة : ١٥

طالبا منه حمل ما كان الرومي يحمله كل سنة فرفض سليمان ـ فهو ،ومن لا تحـق عليه جزية ـ ، ودارت بينهما مناوشات انتهت بمعركة في صفر سنة ٤٧٨ قتـل فيها شرف الدولة وانهزمت جموعه(١). واثناء ذلك كان اولو الامر في مصـر يتحينون الفرصة لتوسيع رقعة ممتلكاتهم الشامية ، فوصل امير الجيوش ـ فـي ربيع الاول سنة ٤٧٨ ـ في عساكر مصر ، فحصر دمشق وبها تاج الدولة تتـش صاحبها ، ولما لم يظفر بشيء عاد الى مصر(٢) .

ويجتاح الغزو الصليبي بلاد الشام ، ويمثل خطر داهم امام الولاة والامراء كان يفترض ان ينسيهم خلافاتهم ويرصهم صفا واحدا امام الغزاة ، ولكنهـم يتحدون ظاهرا وعوامل التفرقة تعمل فيما بينهم . وليس من اليسير في هـذه المقدمة الموجزة ان اتحدث عن امثلة هذا التناحر بتفصيل ، فان كتب التاريـخ تفيض بهذا النوع من الاخبار(٣) .

وقد كان للتنابذ بين الامراء وما نتج عنه من تجزئة وفرقة اثره البارز فـي احداث البلبلة في البلاد ، وما يتبع هذا من اضطراب حبل الامن وازد يـاد اخطار التنقل من مكان الى آخر بالنسبة للاشخاص والقوافل التجارية ، وزاد الامر صعوبة فيما يتعلق بالتجارة كثرة الولايات وما يفرض على التاجر أداؤه مـن المكوس في كل مكان . وكانت الحروب والفتن المستمرة تستتبع فرض الضرائـب بكثرة وبتعسف احيانا كثيرة لتغطية النفقات مما اضر بالناس .

<u>الخطر الخارجي ـ الصليبيون</u> : بدأ غزو الفرنج للشام عام ٤٩٠ ، فاخـذوا انطاكية في جمادى الاولى عام ٤٩١ بعد حصار دام تسعة اشهر من اميرها ياغـي سيان واعملوا فيها القتل والسلب(٤) ، ولم تثمر محاولة كربوقا امير الموصل ومعـه امراء الشـام في محاولة استرداد ما خرج من ايدى المسلمين ، فسـار الفرنج

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١١٨ والكامل ١٠ : ٩١ (٢) الكامل ١٠ : ٩٤

(٣) من اجل تفصيلات عن تنابذ الامراء انظر مثلا : ذيل تاريخ دمشق : ١٧٤ـ١٧٧ ، ٢٥٦ـ٢٥٨ ، ٢٦٧ والكامل ١٠ : ٣٤٠ـ٣٤٢ ، ١١ : ٢٧ـ٢٨ ، ٤١ والاتابكة : ٣٣ـ ٣٤ ، ٩٢ـ٩٨ والروضتين ١ : ٨٠ (تحقيق حلمي)

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٤ ـ ١٣٥ والكامل ١٠ : ١٨٦ ـ ١٨٨

يكتسحون البلاد فاخذوا معرة النعمان في المحرم سنة ٤٩٢ ووضعوا السيف في أهلها [١] ، وفي آخر رجب سنة ٤٩٢ توجهوا الى هدفهم الاكبر - بيت المقدس - فحصروا البلدة نيفا واربعين يوما الى ان تمكنوا من افتتاحها في الثاني والعشرين من شعبان وقتلوا من الناس ما يزيد على سبعين الفا ونهبوا الكثير النفيس من الصخرة [٢] ، وجاء الافضل امير الجيوش بعساكر مصر محاولا صدهم فهزموه وفرضوا على اهل عسقلان قطيعة يدفعونها كل سنة [٣] . وتابع الفرنج زحفهم باجتياح الساحل ، ففي سنة ٤٩٤ افتتحوا حيفا عنوة وملكوا ارسوف بالامان ، وفتحوا في رجب قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها [٤] ، وسقطت بايديهم طرابلس في ذي الحجة سنة ٥٠٣ - وكانت في حكم المصريين منذ سنة ٥٠١ - بعد حصار طويل ، وأخذوا بعد سقوطها بانياس وجبيل [٥] . وتسلموا صور في جمادى الاولى من سنة ٥١٨ بعد حصار شهرين [٦] . وقد أخذ الفرنج عدة من حصون الشام ، واسسوا ممالك وامارات متعددة في البلاد التي افتتحوها . فكانت هناك مملكة القدس وامارات الرها وانطاكية وطرابلس .

وقد جلب الفتح الفرنجي متاعب جديدة للمنطقة زيادة على ما تعانيه ، فقد ظهرت الان امارات جديدة قد تختلف فيما بينها ولكنها تتفق على معاداة المسلمين ، وكان اختلاف الامراء الاقليميين مشجعا للفرنج على أخذ البلاد وفرض الاتاوات الضخمة عليها ، تلك الاتاوات التي كانت تقع على كاهل

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٦ والكامل ١٠ : ١٨٨ - ١٩٠
(٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٦ والكامل ١٠ : ١٩٣ - ١٩٤
(٣) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٦-١٣٧ والكامل ١٠ : ١٩٣ (المكررة) - ١٩٤ (المكررة)
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٩ والكامل ١٠ : ٢٢٢
(٥) ذيل تاريخ دمشق : ١٦٣ - ١٦٥ والكامل ١٠ : ٣٣٣ - ٣٣٥
(٦) ذيل تاريخ دمشق : ٢١١ والكامل ١٠ : ٤٣٧ - ٤٣٨

الاهالي فتستنزف اموالهم ، وكان الامراء - منفردين - يتوصلون الى عقد صلح مع الفرنج يدوم او ينقض سريعا ، ففي سنة ٥٠٢ توصل طغتكين أتابك صاحب دمشق وبغدوين ملك القدس الى الاتفاق على وضع الحرب اربع سنين[(١)] ، وفي السنة التالية خرج طغتكين لصد الافرنج عن رفنية - بعد اخذهم طرابلس- وترددت بينهم مراسلات افضت الى تقرير الموادعة والمسالمة على ان يكون للافرنج الثلث من استغلال البقاع وان يكون حصن مصيات وحصن الطوفان وحصن الاكراد في شروط الموادعة يحمل اهلها عنها مالا معينا سنويا الى الفرنج ، وان يسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار فاقاموا على ذلك مدة يسيرة ثم انتقض ما بينهم[(٢)]. ونزل بغدوين ملك الفرنج على صيدا عام ٥٠٤ وقرر على من اقام بها نيفا وعشرين الف دينار افقرتهم واستغرقت اموالهم[(٣)] .

وقد اضطر رضوان بن تتش صاحب حلب الى مهادنة طنكرى صاحب انطاكية سنة ٥٠٣ على ان يحمل اليه في كل سنة عشرين الف دينار من مال حلب مقاطعة وعشرة أروءس خيلا وفكاك الاسرى[(٤)] . وكان لصاحب انطاكية مقاطعة سنوية على شيزر تبلغ عشرة آلاف دينار[(٥)] .

وقد كانت حالة البلاد الاقتصادية مرتبطة بهذه العهود والمواثيق بين الفرنج والمسلمين فما دامت هناك حروب واتاوات تدفع ، يظل الاهالي في

---

(١) الكامل ١٠ : ٣٢٧
(٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٦٥
(٣) ذيل تاريخ دمشق : ١٧١ والكامل ١٠ : ٣٣٧
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٧١
(٥) المصدر السابق : ١٨٣

ضنك اذ تصبح طرق التجارة غير مأمونة ، وتستلزم نفقات الجيوش والاتاوات جزءا كبيرا من اموال الولاية ، ثم تقع المهادنة فيخف نير الضائقة الاقتصادية عن كاهل الناس ، فبعد ما وقعت المهادنة بين نجم الدين ايل غازى بن ارتق صاحب حلب والفرنج سنة ٥١٤ ، وتقررت الموادعة على ان يكف كل من الفريقين الاذية عن الآخر ، رفع نجم الدين عن اهل حلب المكوس والمؤن والكلف فقوبل ذلك بالثناء [1] .

وقد استمرت هذه الحال من طلب الموادعة من الفرنج احيانا ومن المسلمين احيانا اخرى حسب قوة كل منهم ، فبعد ان خرج شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق وقصد بلاد الفرنج : طبرية والناصرة وعكا واعمل فيها التخريب والاحراق والسبي ، راسله الفرنج في تجديد الهدنة فهادنهم في ذى القعدة سنة ٥٢٨ه [2] واقتضت الحال نور الدين مهادنة من بانطاكية بعد انتصاره في انب سنة ٥٤٤ واخذه افامية على ان يكون ما قرب من الاعمال الحلبية له وما قرب من انطاكية لهم [3] .

وكان لهذه الحروب جميعا اثرها في احلال الخراب بالحصون والمدن والمحاصيل الزراعية ، وما ينتج عن ذلك من نوبات الغلاء التي كانت تجتاح البلاد من حين لآخر [4] . وكان لها ايضا الفضل في بعث دولة قوية في هذه المنطقة بعد طول خمول ، دولة قامت بلم شعث الاطراف المختلفة وصهرتها في حكم واحد مكين كان له اثره البعيد في التاريخ الاسلامي .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٢
(٢) الكامل ١١ : ٥ ـ ٦
(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٦
(٤) انظر ذيل تاريخ دمشق : ١٤٢ ـ ١٤٣ ، ٢١٢ والكامل ١٠ : ٤٤٠

الخطر الداخلي ـ الباطنية : الباطنية هم الاسماعيلية وهم الذين كانوا قديما يسمون قرامطة . فاول ما عرف من امرهم في ايام السلطان ملكشاه اذ اجتمع منهم ثمانية عشر رجلا فصلوا صلاة العيد في ساوة ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فاطلقهم ، وحاولوا استمالة مؤذن من اهل ساوة كان مقيما باصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم وكان أول قتيل لهم ، وبلغ الامر الى نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله ووقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فأخذ وقتل وكان اول قتيل منهم [١]. ثم كانت اول فتكة مشهورة لهم . ففي عاشر رمضان سنة ٤٨٥ قتل صبي منهم الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق وزير السلطان ملكشاه [٢]. واول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين كان متقدمه على مذهبهم ، واجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج متقدم البلد ومعه اصحابه والباطنية فقتل جميع اهل القفل الا رجلا تركمانيا وصل الى قاين وأخبر بالقصة فتسارع اهلها مع القاضي الكرماني الى جهادهم فلم يقدروا عليهم [٣]. وقد عظم امرهم وقويت شوكتهم بعد قتل نظام الملك وموت ملكشاه (عام ٤٨٥) واشاعوا الذعر في اصبهان . وقد استولوا

---

(١) الكامل ١٠ : ٢١٣

(٢) الكامل ١٠ : ١٣٧ ، الاتابكة : ١٩ ، الروضتين ١ : ٦٢ (تحقيق حلمي)

(٣) الكامل ١٠ : ٢١٤

على عـــدة حصون [١] .

وكان اول من اظهر مذهب الباطنية في حلب والشام هو المعروف بالحكيم المنجم الباطني صاحب الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب [٢] ومعـــه ابو طاهر الصائغ واستمالا اليه الناس بالخدع والمحالات فمال اليهم خلـــق كثير بسرمين والجور وجبل السـماق وبني عليم [٣] .

وقد ترك الباطنية اثرا بارزا في تاريخ هذه الفترة ، فقد اخذوا حصـونا عدة — كما ذكرنا — ، واعملوا يد الاغتيال في رجالات البلاد :

١ — فاغتال ثلاثة منهم عام ٤٩٦ — الامير جناح الدولة حسين اتابـك صاحب حمص مع جماعة من اصحابه ، وكانوا موفدين من قبل الحكيم المنجـم ، وقد هلك الحكيم بعد هذه الحادثة باربعة عشر يوما [٤] . وقام مقام الحكـيم

---

(١) منها : قلعة اصبهان وقد أخذها رئيسهم احمد بن عطاش ، وألموت مـن نواحي قزوين ، بناها احد ملوك الديلم وسماها اله موت (ومعناها بلسـان الديلم : تعليم العقاب) ، وقد ملكها الحسن بن الصباح احد تلامذة ابـن عطاش فارسل نظام الملك عسكرا حصر القلعة فكان ان انفذ الحسن من قتـل نظام الملك فرجع العسكر ، وطبس وبعض قهستان ومن جملتها خور وخوسف وزوزن وقاين وتون ، وقلعة وسنمكوه ، ملكوها عام ٤٨٤ ثم ارسل بركياروق مـن يحصرها فأخذت عام ٤٨٩ بعد حصار ثمانية اشهر ، وقلعة خالنجـان اخذها ابن عطاش ، واستوناوند بين الرى وآمل ملكوها بعد ملكشـاه ، اردهن ملكها ابو الفتوح ابن اخت الحسن بن الصباح ، وكردكوه ، وقلعـة الناظر بخوزستان ، وقلعة الطنبور قرب ارجان اخذها ابو حمزة الاسـكاف ، وقلعة خلادخان بين فارس وخوزستان اقام بها الباطنية نحو مائتي سـنة يقطعون الطريق حتى اخذها منهم عضد الدولة بن بويه وعادوا واستولـوا عليها مرة اخرى من دزداركان معينا من قبل معين الدين أنر — مدبـر دولة دمشق ، وكان السلطان ملكشاه قد اقطعه اياها (الكامل ١٠ : ٢١٥ — ٢١٨)

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٢

(٣) المصدر السابق : ١٨٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٢

بعد وفاته ابو طاهر الصائغ العجمي ، فانفذ عام ٤٩٩ جماعة الى افامية اغتالوا صاحبها بمساعدة احد دعاتهم ، ابي الفتح السرميني ، وكان مقيما بها . وجاء ابو طاهر الصائغ عندئذ الى افامية ووقع اسيرا في يد طنكرى صاحب انطاكية الذى حصر البلد واخذها بعد ما التجأ اليه احد اولاد صاحب افامية . وقتل السرميني وفدى ابو طاهر واصحابه انفسهم (١) .

٢ — وبعد ما نكبهم تاج الملوك بورى صاحب دمشق انفذوا اليه من الموت اثنين وثبا به سنة ٥٢٥ وجرحاه عدة جراحات ونجا من الموت ولكنه قضى في السنة التالية (٢) .

وقد نكبوا عدة مرات ، من ذلك :

١ — انهم ثاروا مرة في حصن شيزر في فصح النصارى — سنة ٥٠٢ أو ٥٠٧ — على غفلة من أهله ، واخذوا القلعة ، بينما كان امراء بني منقذ يشاهدون الاحتفال بالعيد ، واجتمع الناس والامراء على قتالهم وهزموهم شر هزيمة وقتلوهم جميعا وكل من كان على رأيهم في البلد (٣) .

٢ — وكان امرهم قد قوى في حلب سنة ٥٠٧ ، فلما توفي رضوان صاحبها في هذه السنة اتفق ابن بديع رئيس حلب مع الملك الب ارسلان ابن

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٩—١٥٠ والكامل ١٠ : ٢٨١ — ٢٨٣
(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٣٠—٢٣٣ والكامل ١٠ : ٤٧٨ — ٤٧٩
(٣) ذيل تاريخ دمشق : ١٩٠—١٩١ والكامل ١٠ : ٣٣١ وانظر الاعتبار : ٩٢

رضوان على الايقاع بهم فقبض على ابي طاهر الصائغ وقتل في الحال ومعه اخو الحكيم المنجم واسمعيل الداعي وحبس الباقون واستصفيت اموالهم فمنهم من قتل وتفرق الباقون في البلاد (١) .

وقد كان احد مظاهر افسادهم في البلاد معونتهم للفرنج . ففي سنة ٥٢٠ استفحل امر بهرام داعيهم في حلب والشام ، وهو مستتر لا يعرف . واقام بحلب مدة ونفق على ايلغازى بن ارتق صاحبها فاشار على طغتكين ان يأخذه عنده ، فحصل في دمشق ووافقه الوزير ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني - وان لم يكن على مذهبه . فلما قوى امره طلب من ظهير الدين حصنا يأوى اليه فسلمه ثغر بانياس في ذى القعدة واجتمع اليه اصحابه فعظم خطرهم (٢). وقتل بهرام سنة ٥٢٢ بيد الضحاك بن جندل بعدما غدر ببرق اخي الضحاك ، وقام بعده بامر الباطنية صاحبه اسمعيل العجمي ، وزادت شكوى الناس منهم فرتب تاج الملوك بورى جماعة قتلوا الوزير المزدقاني في رمضان سنة ٥٢٣ وعندها ثار الناس في دمشق بالباطنية فقتلوا كل من ظفروا به ، واسقط في يد اسمعيل الداعي فسلم بانياس للفرنج وتفرق شمل جماعته (٣) .

ولم تؤثر فيهم النكبات المتتالية ، كلما حلت بهم واحدة عادوا فنظموا صفوفهم واعادوا قواهم الى سابق عهدها . فقد اشتروا عام ٥٢٧ قلعة حصن القدموس في الشام من صاحبه ابن عمرون (٤) ، وتملكوا حصن مصياث بالشام ايضا سنة ٥٣٥ بحيلة دبروها على مالكه احد مماليك ابن منقذ (٥) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٨٩ - ١٩٠ والكامل ١٠ : ٣٤٩

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢١٥ والكامل ١٠ : ٤٤٥ - ٤٤٦

(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٢٢١ - ٢٢٤ والكامل ١٠ : ٤٦١ - ٤٦٢

(٤) الكامل ١١ : ٤

(٥) ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٤ والكامل ١١ : ٥٢

وقد عرفوا بالشجاعة والبسالة ، وما هم عليه من الرأى والتجربة [(١)] ، والطاعة المطلقة لشيخهم ... وهم "متضامنون مع بعضهم اذعانا لتعاليم شيخهم حتى انهم ليضحون بالنفس طوعا ويفتكون بالملوك والامراء اذا اقتضى" [(٢)].

عماد الدين ودولة الاتابكة :

وكأنما كانت جميع هذه العوامل ارهاصا بظهور رجل قوى ، يتخذ القوة سبيله الى البدء في لم شمل الاطراف المتنافرة في دولة ثابتة الاركان تستطيع الصمود في وجه العدو ، ويكون عمله منطلقا الى خلق قوة موحدة واعية للاخطار المحدقة بها ، وعيا يصل بها الى طرد المغتصبين واجلائهم عن البلاد . وقد كان هذا الرجل هوعماد الدين زنكي .

وكانت البلاد عندما تولى عماد الدين الامر في حالة لا تحسد عليها فجاء لها منقذا ... "وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم .... فلما نظر الله سبحانه الى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكي فغزا الفرنج في عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثأرهم" [(٣)] .

عماد الدين زنكي : كان ابوه قسيم الدولة أقسنقر تركيا من اصحاب السلطان ملكشاه بن الب ارسلان واترابه في صغره ، فلما افضت السلطنة اليه جعل قسيم الدولة من اعيان امرائه [(٤)] . وفي سنة ٤٨٠ ولاه السلطان

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢١٣ والكامل ١٠ : ٤٤١
(٢) رحلة بنيامين : ٨٨
(٣) الروضتين ١ : ٧٦ ـ ٧٧ (تحقيق حلمي)
(٤) الاتابكة : ١١ ، الروضتين ١ : ٥٨ (تحقيق حلمي)

حلب واعمالها وحماة ومنبج ولاذقية وما معها وبقيت بيده لحين مقتله سنة ٤٨٧ (١) . لم يخلف اقسنقر غير عماد الدين ، وكان لعماد الدين عند موت والده نحو عشر سنين من العمر فاجتمع عليه مماليك والده ، واتصل بامراء الموصل الذين اظلوه برعايتهم (٢) .

واول ما نراه يتولى اقطاعا في سنة ٥١٦ ، اذ ولاه اقسنقر البرسقي واسط وكلفه بشحنكية البصرة (٣) .

واتصل بالسلطان محمود وزادت منزلته عنده عندما رأى منه الشجاعة والعون الصادق في نزاعه مع الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٠ فولاه شحنكية بغداد والعراق ، وخلا كرسي ولاية الموصل بموت صاحبها اقسنقر البرسقي مقتولا سنة ٥٢٠ وموت ابنه عز الدين مسعود الذى خلفه ، فولاها السلطان عماد الدين ودخلها في رمضان سنة ٥٢١ (٤) .

وبعد ان فرغ عماد الدين من أمر الموصل سار الى جزيرة ابن عمر فتسلمها وواصل فتوحاته فأخذ نصيبين واربل والخابور والرحبة وحران ، وسار الى حلب فعبر الفرات وملك منبج وبزاعة ، وأخذ حلب سنة ٥٢٢ ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١١٩ ، الاتابكة : ١٧ ، الكامل ١٠ : ١٠٧

(٢) انظر الاتابكة : ٣٠ ـ ٣٣ ، ٣٦ ـ ٣٧ ، الروضتين ١ : ٦٧ ـ ٦٩ (تحقيق حلمي)

(٣) الاتابكة : ٤٦ ، الكامل ١٠ : ٤٢٧ ، الروضتين ١ : ٧٣ (تحقيق حلمي)

(٤) انظر الاتابكة : ٥٦ ـ ٥٩ ، ٦٤ ـ ٦٥ ، الكامل ١٠ : ٤٤٨ ـ ٤٥٦ ، الروضتين ١ : ٧٤ ـ ٧٦ (تحقيق حلمي)

وسار في السنة التالية وملك حماة . وعاد عام ٥٢٤ الى البلاد الجزرية فأخذ سرجة ودارا من اصحابهما الملوك الاراتقة . وفي السنة ذاتها سار الى حصن الاثارب وهو للفرنج وهزمهم واكثر القتل فيهم وملك الحصن وخربه ، ثم توجه الى حصن حارم فراسله من فيه من الفرنج بالصلح على ان يبذلوا له مناصفة دخل حارم فأجابهم الى ذلك وعاد عنهم [١] . واستمر عماد الدين في تملك البلاد وتثبيت مركزه السياسي ومحاربة الفرنج ، فملك قلاع الحميدية — قلعة العقر وقلعة شوش — عام ٥٢٨ [٢]، والتجأ اليه الخليفة الراشد اثناء نزاع الاخير مع السلطان مسعود سنة ٥٣٠ [٣] ، وواقع الروم والفرنج وهم يحاصرون شيزر سنة ٥٣٢ واستطاع بالحرب والحيلة ان يجليهم ويغنم آلاتهم [٤] ، وتمكن من ملك بعلبك بالامان سنة ٥٣٣ ، وكان الامر فيها لمعين الدين أنر بدمشق ، وفرغ من ترتيب امرها سنة ٥٣٤ وسار الى دمشق وحصرها مدة ، فلما لم يتمكن من اخذها رحل عنها [٥]. وكان له لقاء مع الفرنج على حصن بارين سنة ٥٣٤ حيث هزمهم شر هزيمة ، ولقاء آخر حقق به اعظم انتصاراته عندما فتح الرها سنة ٥٣٩ .

---

(١) انظر الاتابكة : ٦٧-٧٦ ، الروضتين ١ : ٧٧-٧٨ (تحقيق حلمي) وانظر الكامل ١٠ : ٤٥٧-٤٥٨ ، ٤٦٦-٤٦٧

(٢) انظر الاتابكة : ٨٦-٨٧ ، الكامل ١١ : ٦ - ٨

(٣) الاتابكة : ٩٥

(٤) الاتابكة : ٩٨-١٠٠ ، الروضتين ١ : ٨١-٨٣ (تحقيق حلمي)

(٥) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٨-٢٧٣ ، الكامل ١١ : ٤٥-٤٦ ، ٤٨-٤٩

وكانت وفاته في ربيع الآخر سنة ٥٤١ اثناء حصاره قلعة جعبر[١] . وقد كان عماد الدين منصفا بين القوى والضعيف ، واهتم ببناء دور المملكة بالموصل وكثرت في ايامه الفاكهة فيها ـ بعد ان كانت قليلة جدا ـ نتيجة لعمران البلاد[٢]. وكان شجاعا جريئا ، تشهد له بذلك فتوحاته ، وهو شغوف بالصيد ، له الجوارح الكثيرة ، شهد اسامه معه صيده ووصفه[٣] .

وبعد موت عماد الدين خلفه في ممتلكاته الشامية ابنه نور الدين فتابع ما بدأ به والده من استخلاص الحصون والقلاع من ايدى الفرنج ، واخذ في توحيد البلاد وتعميرها[٤] ، فاخذ دمشق سنة ٥٤٩ من صاحبها مجير الدين أبق ودانت له مصر بالطاعة .

وقد كان نور الدين شخصية فذة ، حدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء اجازوا له منهم ابوعبد الله بن رفاعة بن غدير السعدى المصرى ، وروى عنه جماعة مثل ابي الفضل أحمد وابي البركات الحسن وابي منصور عبد الرحمن ابن ابي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي[٥].

وهو اول من بنى دار العدل بدمشق وكان يجلس فيها في كل اسبوع عدة ايام وعنده العلماء والفقهاء[٦]. وبنى اسوار مدن الشام جميعها ، فمنها حلب وحماة وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج ، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد ، وجامعه في الموصل متقن حسن ، وبنى بحماة جامعا على نهر العاصي ، وشيد البيمارستانات في البلاد ومن اعظمها مارستان دمشق ، وبنى ايضا الخانات في الطرق فأمن

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٤ ، الكامل ١١ : ٧٢ ، الاتابكة : ١٣٢
(٢) الاتابكة : ١٣٦ ـ ١٣٩ وانظر الكامل ١١ : ٧٣
(٣) الاعتبار : ١٣٩ ـ ١٤١
(٤) سنأتي على تفصيل أعمال نور الدين في ترجمة القيسراني لصلة تلك الاعمال بشعره
(٥) الروضتين ١ : ٢٩ ـ ٣٠ (تحقيق حلمي)
(٦) مرآة الزمان ٨ : ٣٠٩ والروضتين ١ : ١٧ ـ ١٨ (تحقيق حلمي)

الناس ، والربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ووقف عليهم الوقوف الكثيرة ، وكان يوقر العلماء • وبنى بدمشق دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وفي كثير من بلاده بنى مكاتب للايتام واجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة [١]• وقد صنف كتابا سماه الفخر النورى فيه احاديث العدل والجهاد والمواعظ وصنف كتابا في الجهاد وهو بدمشق [٢] •

وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية مواظبا على الصلوات في الجماعات عفيف البطن والفرج مقتصدا في الانفاق • وكان في الحرب ثابت القدم صليب الضرب حسن الرمي يتقدم اصحابه ويتعرض للشهادة [٣] ، يتبع احسن الآراء مع اجناده ، فاذا توفي أحدهم وخلف ولدا اقر الاقطاع عليه ، فكان ذلك من الاسباب الموجبة للصبر في الحروب [٤] •

وقد بلغ من تواضعه ان امر باسقاط القابه في الدعاء على المنابر [٥] • وأمر باسقاط المكوس الزائدة فكتب وزيره موفق الدين خالد منشورا بهذا المعنى عمم في البلاد [٦]• وقد ابطل في عام ٥٤٣ آذان "حي على خير العمل" والتظاهر بسب الصحابة ، فأمات البدعة [٧] •

وشهدت المنطقة فترة من الاستقرار النسبي في عهد نور الدين ، ورأى الناس فيه أملا جديدا ، ومثالا للحاكم الذى طال اشتياق البلاد الى ظهوره في ربوعها •

---

(١) الروضتين ١ : ٢٠–٢٢ (تحقيق حلمي)
(٢) مرآة الزمان ٨ : ٣١٣
(٣) الروضتين ١ : ١٠–١١ (تحقيق حلمي)
(٤) المصدر السابق ١ : ٢٠
(٥) المصدر السابق ١ : ٢٨
(٦) انظر مفرج الكروب ١ : ٢٦٩–٢٧٩
(٧) ذيل تاريخ دمشق : ٣٠١ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٧٨

الحيـــاة الاجتـــماعية

لقد شهدت هذه الفترة تمازجا بين ثلاث طرائق حياة لكل منها ما يميزها — أعني طريقة حياة أهل البلاد الاصليين ، ثم ما جلبه معهم الوافدون من تـرك وفرنج • وقد اخذت كل من الثلاث من الاخريين واعطتهما ، وليس لنا ان ننتظر تكامل انصهار تلك العادات المتباينة في قالب واحد في فترة قصيرة ، فمثـــل هذا يحتاج الى اجيال عدة لكي يبرز اثر هذا التمازج واضحا •

واضطراب الحالة السياسية في هذه الفترة طبع حياتها الاجتماعية بطابع خاص، فكل مدينة كانت تقريبا مستقلة يحكمها ملك أو أمير أو نائب وقد ادى هذا الى ظاهـــرتين :

الاولى : ما نلاحظه من الترف في البناء والملبس والهوايات عند الامـراء الذى لا يقابله ترف مماثل عند طبقات الشعب • فقد كانت المهام/التي تواجه الامـير من النوع الذى لا يستلزم كبير عناء — فليس هناك دولة شاسعة مترامية الاطـراف تستلزم الجهد الجهيد لحفظها ، ولم ينظر معظمهم — كما رأينا — الى هجـوم الفرنج واخذهم ما أخذوا نظرة وطنية صادقة — فانصرفوا الى العناية بمدنهـم وتجميلها والى الالتفات الى هواياتهم •

الثانية : تفاوت العادات والتقاليد ما بين مدينة واخرى تبعا لوقوعهـا تحت سيطرة العرب او الفرنج •

الـترف : فالخليفة في بغداد لا تتجاوز سلطته حدودها ، فهو يملك ولا يحكم ، ولكنه يعوض عن ذلك بقصر "واسع الارجاء تنوف استدارته على ثلاثة اميال تتوسطه روضة غناء فيها اشجار مثمرة وغير مثمرة من كل صنف وفيها من الحيـوان ضروب كثيرة وفي الروضة ايضا بحيرة واسعة يأتيها الماء من دجلة يخرج اليهـا الخليفة للصيد والنزهة وقد جمعت فيها اصناف الطير والسمك لرياضة الملـك .

ووزرائه ورجال بطانته وضيوفه ... وفي قصر الخلافة من الابنية ما يحير العقول . ففيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب المزينة بالحجارة النادرة المنقوشة بالريازة البديعة تكسو الحيطان . وفي القصر كنوز وافرة وخزائن طافحة بالذهب والثياب الحرير والجواهر الكريمة" [١]. وهم يتفننون في بناء الجوامع فترى جامع الموصل "بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش في الآجر. وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ويطيف به شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد اشرف منها ولا أحسن" [٢]، وفي بناء قيساريات التجار، كقيسارية الموصل التي تبدو "كانها الخان العظيم تنغلق عليها ابواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلي ذلك كله في اعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له" [٣].

وهم يغالون في استعمال المعادن الثمينة كالذهب والفضة . فمملوك اسامة بن منقذ يركب بغلة عليها "مركوب بفتل فضة" [٤]، وأسامة نفسه يعتلي سرجا من الذهب "منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلثون مثقالا" قد كتب اسمه على دائره بالسواد [٥]. ويحضر عماد الدين زنكي مصافا مع الراشد بالله وعليه جوشن مذهب [٦]. وعندما يصل ابو الهيجاء رسولا من السلطان ملكشاه الى ابن مروان صاحب ديار بكر يأمر ابن مروان بادخاله الحمام وينفذ له آلة الحمام جميعها فضة ويهبه اياها [٧] .

---

(١) رحلة بنيامين : ١٣١-١٣٢
(٢) رحلة ابن جبير : ٢٢١-٢٢٢
(٣) المصدر السابق : ٢٢٢
(٤) الاعتبار : ٣٠
(٥) المصدر السابق : ٢١-٢٢
(٦) المصدر السابق : ٢
(٧) المصدر السابق : ٦٥

وتدخل خاتون بنت الامير مسعود الموصل عائدة من الحج "وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة اهلة ودنانير سعة الاكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات فلا تكاد تبين من القبة موضعا ومطيتاها تزحفان بها زحفا وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره" (١) .

النزهات والهوايات : كان اهل دمشق يجتمعون في صحن الجامع الاموى ، فكان الصحن ــ وهو من اجمل المناظر واحسنها ــ "متفرجهم ومتنزههم كل عشية ، تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جبرون الى باب البريد :فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون . ولبعضهم بالغداة مثل ذلك ، واكثر الاحتفال انما هو بالعشي . فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم" (٢). وكان هناك في ظاهر دمشق ايضا من جهة الغرب ميدانان عليهما حلق شديدا الخضرة تتصل بهما غيضة عظيمة من الحور ويجرى النهر بينهما ، وفيهما يسابق السلطان بين الخيل ويلعب بالصوالجة ، ويخرج اليهما ابناء السلطان كل ليلة للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة (٣) .

وكان هناك ثلاث من التسليات الشائعة :

١ ــ اللعب بالشطرنج : وقد كانت كما يبدو تسلية شائعة بين الخاص والعام . فنرى ابو المرجا سالم بن قانت الحلبي ــ وهو "يلعب بالشطرنج طبقة ويلعب بها غائبا" ــ يزور شيزر فيقيم فيها السنة والاكثر والاقل مقيما عند امرائها (٤)، ويبلغ من شغف الغلمان بها ان كانوا يلعبونها بالليل مستهدين بسراج يضعونه على رأس كلبة سوداء (٥) .

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٢٤

(٢) رحلة ابن جبير : ٢٥٤

(٣) المصدر السابق : ٢٧٧

(٤) الاعتبار : ١٠٧

(٥) المصدر السابق : ١٦٦

٢ ـ الصيد : ويبدو ان الصيد كان الهواية الاثيرة لدى الكثيرين من اهل هذا العصر وسراته وامرائه . وكتاب الاعتبار يزخر بالمشاهد التي تصور هذه الهواية .

فنرى صيد السمك شائعا بين الناس [١] . والامراء يخرجون الى الصيد بانواعه ، فقد كان شهاب الدين محمود بن تاج الملوك صاحب دمشق يخرج لصيد " الطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير " [٢] ، واهل حصن كيفا وامراؤها اكثر صيدهم " الاراوى ومعزى الجبل ... وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد وكذلك الارانب " [٣]، وكان نور الدين " مشغولا بالصيد وبصيد الغزلان " [٤]. ويصيدون الطيور ، وقد كانت البزاة والشواهين اداتهم في صيدها [٥] .

ولهم اهتمام بالحيوانات التي تستعمل في الصيد ، فقد بلغت عنايتهم بالفهود ـ التي كانوا يرسلونها على الغزلان ـ ان سموا كلا منها باسم [٦]. وتعهدوا البزاة بالرعاية ، فكان والد اسامة " يتكلف في تسيير قوم من اصحابه الى البلاد لشرى البزاة حتى انه انفذ الى القسطنطينية من احضر له منها بزاة " ، واستكثروا منها وكانوا يدفعون لها اثمانا عالية [٧]، وكان الامراء يتهادون البزاة ، حتى لقد كانت احيانا سببا في العلاقات الطيبة التي تنشأ بينهم [٨] .

وفي خروجهم الى الصيد كانوا يحملون من آلة الصيد الشباك والقوس والمجارف والكلاليب ، ومعهم الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب [٩]. ولهم ترتيب في الصيد ، فاذا خرجوا اليه " لا يشتغل احد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر الارانب او الطير في اوكارها " [١٠]. ويذهبون اليه جماعات يصل عددها الاربعين فارسا [١١]. وكانوا احيانا يخرجون الى الصيد فيقيمون اياما قد تصل الى عشرة " في صيد وشرب مدام " [١٢].

---

(١) الاعتبار : ١٦١
(٢) المصدر السابق : ١٤١
(٣) المصدر السابق : ١٤٣
(٤) مرآة الزمان ٨ : ٣١٣
(٥) الخريدة ١ : ٣٦٨
(٦) المصدر السابق ١ : ٣٦٩
(٧) الاعتبار : ١٤٤ـ١٤٦
(٨) انظر الاعتبار : ١٤٢ـ١٤٣، ١٤٧، ١٥١، ١٦٢
(٩) المصدر نفسه : ١٥٥
(١٠) المصدر نفسه : ١٤٧
(١١) المصدر نفسه : ٩٢، ١٤٦
(١٢) الخريدة ١ : ٣٨٧

٣ ـ لعب الكرة : كان نور الدين مغرما بها يلعب بها كثيرا [١] ، في ميدان دمشق ، ويرى فيها وسيلة لتدمين الخيل وتعليمها الكر والفر ، وقد كان احد الاسباب التي دفعته الى جعل صلاح الدين من خواصه الملازمين هو ان صلاح الدين كان حسن اللعب بالكرة متفوقاً على اقرانه فيها [٢] .

العادات والتقاليد : تظهر هذه العادات والتقاليد في سلوك الناس عامة ، طريقة مشيهم ومخاطبة واحدهم للآخر ، وافراحهم ،واتراحهم ، واحتفالهم بالاعياد الخ ....

أ ـ طريقة المشي والمصافحة : فمما اثار انتباه ابن جبير ان جميع اهل هذه الجهات ، كبيرهم وصغيرهم ، يمشون وايديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الاخرى ،ويركعون للسلام على تلك الحالة. "وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تميزا في ذوى الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون انهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء وراحة من الاعياء" ، وهم متعالون مترفعون "والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبرا اويضع خلفه اليد الواحدة على الاخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنا" . ولهم من اداب المصافحة عوائد ، وهي عادات مستحبة ، "فهم يستعملونها اثر الصلوات ولا سيما اثر صلاة الصبح وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء اقبلوا عليه بالمصافحة واقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره فيتفرقون عن مجلس مغفرة" . ويستعملونها ايضا عند روءية الاهلة فيدعو بعضهم لبعض "بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من امثاله" [٣] .

---

(١) مرآة الزمان ٨ : ٣٠٨ ، الروضتين ١ : ٢٥٢ (تحقيق حلمي) ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٣٣

(٢) الروضتين ١ : ٢٥٢ (تحقيق حلمي) ، والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣٣

(٣) رحلة ابن جبير : ٢٨٥ ـ ٢٨٦

ب ـ المخاطبة والتسليم : واهل هذه الجهات قاطبة يخاطبون بعضهم البعض " بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة ، واذا لقي احد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام .... وصفة سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بينهم هويا " . ويعجب ابن جبير من هذا الغلو في التسليم "وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدنا لقينات النساء .... فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال " ، وهذا الاسراف في النفاق في المخاطبة "فيا للعجب منهم ، اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ، لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس " (١).

ج ـ حفلات الزفاف : وقد كان للفرنج عاداتهم وتقاليدهم ايضا ، لمسها المسلمون وتقبلوا بعضها ، وفي رحلة ابن جبير وصف لحفلة زفاف عند الفرنج في صور عند الميناء ، خرج فيها جميع النصارى "رجالا ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي ارحامها ، وهي في ابهى زي وافخر لباس تسحب اذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترا في فتر مشي الحمامة .... وامامها جلة رجالها من النصارى في افخر ملابسهم البهية تسحب اذيالها خلفهم . ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين .... ويرفلن في ارفل الحلى ، والآلات اللهوية قد

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٨٥

تقدمتهم . والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك. فساروا بها حتى ادخلوها دار بعلها واقاموا يومهم ذلك في وليمة" (١) .

وكان المسلمون يتزيون بالثياب الزاهية الالوان في حفلات الزواج ، فنرى احدهم "قد تزوج وخرج [الى احدى المعارك] وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس" (٢).

د ـ الجنائز : كان لاهل دمشق وغيرها من البلاد ترتيب خاص "وذلك انهم يمشون امام الجنائز بقراء يقرؤون القرآن باصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا يرفعون اصواتهم بها فتتلقاها الآذان بادمع الاجفان . وجنائزهم يصلي عليها في الجامع قبالة المقصورة فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ودخلوا الى موضع الصلاة عليها الا ان يكون الميت من ائمة الجامع او من سدنته فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه. وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بازاء باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجنائز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء ، من محتشمي البلدة واعيانهم ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين" ، ويسخر ابن جبير من هذه الالقاب الموضوعة الزائفة "فتسمع ما شئت من صدر الدين ، او شمسه ، او بدره ، او نجمه ، او زينه ، او بهائه ، او جماله ، او مجده ، او فخره ، او شرفه ، أو معينه ، او محييه ، او زكيه ، او نجيبه .... وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت ايضا من سيد العلماء وجمال الائمة ، وحجة الاسلام وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ...." . وبعد دخولهم يصعد "كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا اذياله من الكبر ثانيا عطفه وقذاله .

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٩٥ ـ ٢٩٦

(٢) الاعتبار : ٣٦

فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر .... وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته الى ان يفرغوا ويتفرقوا" (١) .

هـ ـ المناسبات والمواكب : كانوا يحتفلون احتفالا كبيرا بمقدم الحاج ، فيخرج الناس رجالاً ونساء لتلقيهم فيصافحونهم ويتمسحون بهم ويحملون اليهم الاطعمة ولفقرائهم الدراهم . وكانوا يبالغون في التبرك حتى ان النساء كن "يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من ايديهم وتبادرن لاكله تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم" (٢) .

ومن عاداتهم ان يقفوا كل سنة يوم عرفة في جوامعهم اثر صلاة العصر ، فيقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم داعين الى الله تعالى "التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات" ويظلون في وقفتهم يدعون ويتضرعون حتى مغيب الشمس ، الى ساعة يقدرون معها انفضاض الحجاج ، ويتفرقون باكين "على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات وداعين الى الله عز وجل في ان يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك" (٣) .

وفي موسم الحج يشاهد المسلمون الخليفة ـ وهي المشاهدة التي لا يتاح لهم غيرها كل عام . اذ تجتمع وفود الحجيج من كل مكان في باحة قصر الخليفة ببغداد معظمين له منادين باسمه . ولا يبالي الخليفة أول الامر ، ثم ينهض "فيرخي ذيل بردته من مشرفة القصر فيقبل الحجاج على لثمها تبركا بكل خشوع" ومن ثم يصرف الحاجب الناس بابلاغهم تحية الخليفة لهم فيتفرقون متهللين (٤) .

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٨٤ـ٢٨٥
(٢) المصدر السابق : ٢٧٥
(٣) المصدر السابق : ٢٨٠ـ٢٨١
(٤) رحلة بنيامين : ١٣٢

وقد بلغت مواكب الامراء الغاية من الفخامة ، وقد نوهنا بموكب الخاتون بنت الامير مسعود ، وكان من عادة الخليفة الا يبارح قصره الا مرة في العام ، في عيد الفطر. فيحتشد الخلق من كل البلاد لمشاهدته ، فيخرج ممتطيا جوادا مطهما "وهو مرتد بردته المقصبة بفضة وذهب ومتوج الرأس بقلنسوة مرصعة بالاحجار الكريمة التي لا يعد لها ثمن ، وفوق القلنسوة قطعة قماش سوداء اللون" ، ويسير موكبه ، محاطا بسراة المسلمين في الحلل الزاهية فوق ظهور الجياد ، الى المسجد . وتكون الطرق والاسواق التي يمر فيها مزينة بالاقمشة الحريرية الزاهية. ويستقبله الناس بالهتاف "والخليفة يرد عليهم التحية بلثم اطراف بردته والتلويح بها" . ويدخل الجامع فيلقي خطبته وينهض كبار المسلمين فيشيدون بعظمته ويدعون له. ثم يؤتى له بجمل ينحره ويوزع اللحم على العظماء والامراء. وبعدها يعود الى قصره ــ وقد جرت العادة ان تكون عودته من طريق غير التي جاء منها ــ بطريق الشارع المشرف على دجلة يواكبه عظماء المسلمين في قوارب حتى يدخل قصره. ويقوم الحراس طوال السنة "على منع الناس من وطء موضع اقدام الخليفة" (١) .

و ــ ومن عاداتهم الحسنة اكرامهم للغرباء ، "واهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة الى الشام على هذه السبيل من حب الغرباء واكرام الفقراء واهل قراها كذلك" (٢) ، واهل الموصل "لا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم" (٣) ، ودمشق تكثر فيها مرافق الغرباء "ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب" (٤) .

---

(١) رحلة بنيامين : ١٣٣ ــ ١٣٤
(٢) رحلة ابن جبير : ٢٣٣
(٣) المصدر السابق : ٢٢٣
(٤) المصدر السابق : ٢٧٤

ز - ويبدو ان مجيء الفرنج وما جلبوه من عادات غريبة على أهل البلاد - ولا سيما فيما يختص بالاختلاط بين الجنسين - لم يجد له قبولا بين اهل المنطقة ، فقد ظل الاختلاط عندهم محصورا على نطاق ضيق جدا اليس من سبيل الى اللقاء بين الرجال والنساء الا سرا بعيدا عن اعين الرقباء ، ولعل الرواية التالية تذهب شاهدا على هذا ، فقد خرج الوزير المزدقاني - وزير تاج الملوك صاحب دمشق - "للتنزه فرأى امرأة في بعض القصور فأعجبته فوقف متأملا لها فاشارت اليه فآنس منها قبولا فأرسل اليها رسولا يعلمها بشدة شوقه ووجده بها فردت رسوله ومعه تفاحة عنبر فيها زر من ذهب ولم تكلمه بشيء فلم يفطن هو ومن حضره لتأويل ذلك فقال له ابنه احمد قد فهمت ما ارادت ونظمه في الحال في بيتين وانشد :

اهدت لك العنبر في جوفه ... زر من التبر خفي اللحام
فالزر في العنبر معناهما ... زر هكذا مختفيا في الظلام" (١)

وكانوا يغارون على النساء فنقرأ ان عماد الدين كان "شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد" (٢). ونرى اسامة مثلا يستهجن اشد الاستهجان ما يراه من الحرية التي تتمتع بها النساء الفرنجيات ، ويصف رجالهن تبعا لهذا بقلة النخوة : "وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ يد المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى" (٣). وقد حددت "حرية نساء الفرنج" هذه نظرة المسلمين اليهن ، فلم يعيروهن كبير تقدير ، فمثلا لا يتورع غلام لاسامة رأى فتاة فرنجية تقف مع ابيها في حمام للرجال - وهي بكامل ملابسها - ان يذهب اليها ويرفع ذيلها ويتطلع فيها للتحقق من هويتها النسائية (٤) ؛ ولم يتم التآلف ايضا بين الفرنج والمسلمين بالنسبة للتزاوج

---

(١) بدائع البدائه ٢ : ١٦٣ - ١٦٤
(٢) الكامل ١١ : ٧٣
(٣) الاعتبار : ١٠٠
(٤) المصدر السابق : ١٠١

فيما بينهم ، فقد اهدى مرشد بن منقذ جارية الى الامير شهاب الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، فاتخذها لنفسه وولدت له ولدا تولى امر جعبر بعده ، ولم تفعل السنين وبهجة الحكم فعلها في نفس الفرنجية وظلت تتحين الفرص حتى تمكنت من الهرب الى بلد من بلاد الفرنج وتزوجت بفرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر[1]. غير ان بعض الفرنج قد تعودوا - بطول المدة التي سلخوها في البلاد - بعض مآكل المسلمين[2]. الا ان نساء المسلمين لم يتوقفن عن المشاركة في ميدان شاركن فيه منذ فجر التاريخ العربي - اعني ميدان الحرب . وكانت مشاركتهن اما فعلية كما حدث في الوقعة بين الاسماعيلية وبني منقذ بشيزر اذ دخل انسان "عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس ... فوضع الخوذة واذا هي ام ... ليث الدولة يحيى"[3] ، او ثانوية ، كسقاية المحاربين كما فعلت احدى النساء في معركة بين المسلمين والفرنج[4] . وكانوا يعاقبون بشدة على الشذوذ الجنسي ، ففي عام ٥٣٨ "وجد رجل يفسق بصبي فألقي من رأس منارة"[5] ، وعاقب نور الدين على شرب الخمر ومنع بيعها وادخالها الى اى بلد[6] .

<u>البيوت والاسواق</u> : كانت معظم الاسواق واسعة مسقفة ، فاسواق منبج وسككها "فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كانها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، واعالي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب اسواق اكثر مدن هذه

---

(١) الاعتبار : ٩٦
(٢) المصدر السابق : ١٠٣ - ١٠٤
(٣) المصدر السابق : ٩٢
(٤) المصدر السابق : ٩٠
(٥) البداية والنهاية ١٢ : ٢١٨
(٦) مرآة الزمان ٨ : ٣٠٦ والروضتين ١ : ١١ (تحقيق محمد حلمي)

الجهات " (١)، وقد كانت اسواق حلب من اوسع الاسواق وابهاها "متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة ،.... واكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شُرَف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها اجمل منظر " (٢). وكان هناك اسواق يجتمع فيها الناس اياما من كل اسبوع للبيع والشراء ويسمونها البازار ، كما كان الحال في سوق دنيصر الذى يجتمع فيه اهل الجهات المجاورة لها يوم الخميس والايام الثلاثة التالية له (٣) .

وقد كانوا يبنون البيوت في دمشق من الطين والقصب طبقات بعضها فوق بعض ، وكل بيوت دمشق كانت ثلاث طبقات ، تكثر فيها الحرائق لسرعة اشتعال موادها (٤) .

المدارس والبيمارستانات والنشاط الثقافي : قلما تخلو مدينة من المدارس والمارستانات والمساجد يتفاوت عددها بحسب عظم المدينة واهميتها . فقد كان في الموصل "مدارس للعلم نحو الست او أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة" ولها جامعان ومارستانان (٥) ، وفي دمشق نحو عشرين مدرسة ومارستانان (٦). وفي حلب مارستان ، وخمس من المدارس (٧). وقد كان لهم عناية خاصة ببنائها وتجميلها ، فقد كانت مدرسة الحنفية في حلب غريبة الصنعة "جدارها القبلي مفتح كله بيوتا وغرفا ولها طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٣٦
(٢) المصدر السابق : ٢٤٠
(٣) المصدر السابق : ٢٢٩
(٤) المصدر السابق : ٢٧١
(٥) المصدر السابق : ٢٢٢
(٦) المصدر السابق : ٢٧٢
(٧) المصدر السابق : ٢٤١

متدليا أمامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة" [١] ، وكان جامع حلب من اجمل الجوامع "استغرقت الصنعة القرنصية جهدها في منبره .... واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب .... وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس" ويتصل الترصيع من المنبر الى المحراب مع الجدار الذى يليهما دون انفصال [٢]. وقد كان من الامراء والنساء الخواتين من يأمر ببناء مدرسة او مسجد او رباط ويعين له من امواله الاوقاف ، وكان السلطان يعين اوقافا لكل بناء محدث ترجى منه الفائدة العامة،سواء اكان ذلك مسجدا ام مدرسة ام خانقة ـ اوقافا تقوم به وبساكنيه والملتزمين له [٣]. وقد كانت المساجد مراكز للتعلم ، فكان الطلبة يجتمعون في الجامع الاموى بدمشق ، وللمدرسين اجراء واسع لقاء عملهم ، وفي المسجد ايضا زوايا يلقن فيها الصبية القرآن ولهم على هذا جراية معلومة ياخذونها لقاء ما يقرأون منه [٤] . وفيه ايضا زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس [٥]. وكان هناك ما يشبه الملجأ للايتام له وقف كبير يأخذ منه المعلم ما يقوم به وينفق منه على طعام الصبيان وكسوتهم وسائر ما يحتاجون اليه [٦] .

وكانوا يحرصون على اقتناء الكتب والعناية بها فقد هان على اسامة ما فقده من المال الا ان فقد مكتبته التي تحوى اربعة الاف مجلد "من الكتب الفاخرة" بقي حزازة في قلبه [٧]. وكان ذوو اليسار منهم يتلهون بالكتابة الانيقة الغالية ، فنرى ان ابا اسامة كتب ختمة كبيرة للقرآن بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن : قراءاته وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه بالحبر والحمرة والزرقة ،

---

(١) رحلة ابن جبير : ٢٤١
(٢) المصدر السابق : ٢٤٠-٢٤١
(٣) المصدر السابق : ٢٦٤
(٤) المصدر السابق : ٢٦٠
(٥) المصدر السابق : ٢٥٤
(٦) المصدر السابق : ٢٦٠
(٧) الاعتبار : ٢٦

وكتب ختمات اخرى بالحبر مذهبة الاعشار والاخماس والايات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء[١] .

وكانت المارستانات تلقى ايضا كامل العناية ، فاحد المارستانين بدمشق جرايته "في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا وله قومة بايديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك" وله الاطباء المعينون" يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم" ، وللمجانين ايضا ضرب من العلاج وهم يوثقون في السلاسل[٢]. والاطباء لهم دكاكين يستقبلون فيها المرضى ، فقد كان لابي جعفرعمر بن علي بن البذوخ الطبيب "دكان عطر باللبادين يجلس فيها ويعالج من يأتي اليه او يستوصف منه ، وكان يهيىء عنده ادوية كثيرة مركبة ... يبيع منها"[٣]. ويبدو انهم مهروا في اجراء العمليات الجراحية ، ففي احدى المعارك مع الفرنج تلقى احد رجال اسامة ضربة بالسيف على وجهه "فقطع حاجبه وجفن عينه وخده ، وانفه وشفته العليا فتدلى جانب وجهه على صدره" فحمله اصحابه الى شيزر فجاء الجرائحي "فخيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ما كان عليه الا ان عينه تلفت" [٤].

وقد كانوا يتبادلون الخبرة الطبية مع الفرنج ، فنرى رجلا يدخل انطاكية ومعه ابنه المريض فيصف رجل فرنجي للصبي دواء يبرئه[٥]، ويظهر ان طبهم كان متفوقا على طب الفرنج ، فبينما يقوم اطباؤهم باجراء العمليات الجراحية الدقيقة ، نرى الفرنج يلجأون الى اساليب فطرية في المعالجة ؛ فقد طلب صاحب المنيطرة الفرنجي الى ابن منقذ صاحب شيزر ان ينفذ اليه طبيبا يداوى

---

(١) الاعتبار : ٣٩
(٢) رحلة ابن جبير : ٢٧٢
(٣) طبقات الاطباء ٣ : ٢٥٧
(٤) الاعتبار : ٧٠ ، وانظر حادثا شبيها بهذا في الاعتبار : ١٢١
(٥) الاعتبار : ٩٨ ـ ٩٩

مرضى من أصحابه ، وذهب الطبيب — ويدعى ثابتا — فاحضروا عنده " فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقتها نشاف " فعمل للفارس " لبيخة ففتحت الدملة وصلحت " وحمى المرأة ورطب مزاجها ، غيران الطبيب الفرنجي لم تعجبه طريقة ثابت في المعالجة ، فأمر باحضار فأس قاطع وفارس قوى ووضع ساق الفارس المريض " على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها فضربه .... ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته " ثم نظر الى المرأة " فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها نحلقوه وعادت تأكل من مواكيلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال الشيطان قد دخل في رأسها فاخذ الموسى وشق راسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها " (١) .

---

(١) الاعتبار : ٩٧ — ٩٨

صورة عـــامة للشعر

ان ما بين ايدينا من شعر هذه الفترة ليس الا أقله ، فمعظم شعرائها لم تصلنا دواوينهم ، وما وصلنا مختارات وقصائد غير كاملة في غالبيتها ، تنتشر في مصادر ادب هذه الفترة كالخريدة والروضتين ، فالصورة التي يحاول الدارس رسمها للشعر وأهله هي صورة جزئية تماما لن تخرج عن كونها لمحة عابرة . ولو حاولنا استشراف هذه الصورة لما فاتتنا مظاهر عامة نلمحها .

شيوع الشعر : اول ما يلفت النظر هو تصدى طبقات مختلفة من الناس لقول الشعر . فالخلفاء يقولون الشعر ، ويحفظ لنا سبط ابن الجوزى مقطوعة غزلية للخليفة المستظهر بالله العباسي [١] ، والامراء لهم فيه اليد الطولى ، وقد اشتهر منهم بقوله شرف الدولة مسلم بن قريش امير حلب والموصل [٢] ، وامراء بني منقذ اصحاب شيزر مثل عز الدولة ابي الحسن علي بن مقلد بن منقذ اول من ملكها منهم [٣] وبنيه نصر بن علي بن مقلد [٤] وابي سلامة مرشد بن علي والد اسامة [٥] وابي العساكر سلطان بن علي أمير شيزر [٦] واسامة ابن مرشد [٧]

(١) مرآة الزمان ٨ : ٧٣
(٢) انظر الخريدة ٢ : ٢٦٢ ـ ٢٦٥
(٣) انظر الخريدة ١ : ٥٥٥ ـ ٥٥٧ وبدائع البدائه ٢ : ٤٣ ـ ٤٤
(٤) الخريدة ١ : ٥٦٨ ـ ٥٦٩
(٥) الخريدة ١ : ٥٦٠ ـ ٥٦١ ، والروضتين ١ : ٢٨٠ ـ ٢٨١ (تحقيق حلمي)
(٦) انظر الروضتين ١ : ٢٨٠ (تحقيق حلمي)
(٧) ديوانه والخريدة ١ : ٤٩٩ ـ ٥٤٧

واخي أسامة ، ابي الحسن علي بن مرشد (١) واسماعيل بن سلطان بن علي بن منقذ (٢) واخيه يحيى ابن سلطان بن علي بن منقذ (٣) .

وقال الشعر القضاة كالعائلة الشهرزورية : القاضي المرتضى عبد الله ابن القاسم بن المظفر بن علي بن الشهرزوري (٤) ، واخوه محمد بن القاسم الشهرزوري قاضي الخافقين (٥) ، وابناء القاضي المرتضى ، قاضي القضاة كمال الدين (٦) ، وشمس الدين القاسم بن عبد الله (٧) وتاج الدين يحيى بن عبد الله (٨) ، ونجم الدين ابن بهاء الدين الشهرزوري (٩) . والفقهاء كابن المتقنة الرحبي (١٠) والنجم الموصلي (١١) . والمؤرخون كابن القلانسي (١٢) وابن عساكر (١٣) . والعلماء كالبديع الاصطرلابي (١٤) . والاطباء كابي الحكم المغربي (١٥) وكمال الدين موسى بن يونس (وهو ايضا عالم بالعلوم الشرعية والفقه) (١٦) وعلي بن يقظان السبتي (١٧) . والمؤدبون كابي البركات الفارسي محسن بن سليمان (١٨) وابي بكر ابن الفقيه الدمشقي (١٩) .

---

(١) الخريدة ١ : ٥٤٩ـ٥٥١ (٢) الخريدة ١ : ٥٦٤ـ٥٦٦
(٣) الخريدة ١ : ٥٦٧
(٤) الخريدة ٢ : ٣٠٩ـ٣٢١ ومرآة الزمان ٨ : ١٢١ ـ ١٢٤
(٥) الخريدة ٢ : ٣٢٢ وفوات الوفيات ٤ : ٢٣٩ والبداية والنهاية ١٢ : ١٨١ وانظر شذرات الذهب ٣ : ٣٩٣
(٦) الخريدة ٢ : ٣٢٣ـ٣٢٧ وفوات الوفيات ٣ : ٢٣٢ وشذرات الذهب ٤ : ٢٤٣
(٧) الخريدة ٢ : ٣٢٨ (٨) الخريدة ٢ : ٣٤٠ـ٣٤٢
(٩) بدائع البدائه ١ : ١٣٧ـ١٣٨ (١٠) الخريدة ٢ : ٢٤٢
(١١) المصدر السابق ٢ : ٢٥٤ (١٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦
(١٣) الخريدة ١ : ٢٧٥ـ٢٧٧ (١٤) مختصر الدبيثي (المستدرك) : ١٩ ومرآة الزمان ٨ : ١٨٥ وعيون الانباء ٢ : ٣٠٠ـ٣٠٣ ووفيات الاعيان ٥ : ١٠١ ومرآة الجنان ٣ : ٢٦١ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٥ وشذرات الذهب ٤ : ١٠٤
(١٥) عيون الانباء ٣ : ٢٤١ـ٢٥٦ والروضتين ١ : ١١٨ ، ١٣٩ـ١٤٠ (تحقيق حلمي)
(١٦) عيون الانباء ٢ : ٣٤٠ (١٧) اخبار العلماء : ١٦٠
(١٨) مرآة الزمان ٨ : ٧٦ (١٩) مرآة الزمان ٨ : ١٥٦

<u>الممدوحون والاعطيات :</u> لقد كان اضطراب الحالة السياسية ما بين فتن داخلية وحروب مستمرة بين المسلمين والفرنج اثرها البارز في الشعر. فانقسام البلاد الى اجزاء عدة كثر الامراء والرؤساء والوزراء. فنتج الكثير من شعر المدح الذى يبدو في معظمه صناعة قصد بها التكسب فحسب، فليس فيه ما يوحي بحرارة مودة يكنها الشاعر للممدوح او احترام عميق يحمله له. وحروب المسلمين والفرنج اثارت كوامن في نفوس بعض الشعراء، كالقيسراني وابن منير، فاستظلوا بظل ابطال هذه الحروب كعماد الدين وابنه نور الدين وربطوا انفسهم بمبدأ الجهاد ضد الفرنج، فكان لنا شعر فيه من الصدق الكثير لانه غدا يعبر عن اماني شعب في مجموعه وانفلت من نطاق التكسب الضيق.

وفيما يختص بالاعطيات يخبرنا الشاعر القيسراني ان هبة الله بن بديع ابو النجم وزير صاحب دمشق تاج الدولة تتش وقع لابن الخياط بألف دينار "وهو آخر شاعر في زماننا وقع له بألف دينار" (١). غير اننا نرى انه لم يكن آخر من وقع له بألف دينار، اذ ان الشاعر الحيص بيص قصد سيف الدين غازى صاحب الموصل ومدحه بالقصيدة :

الام يراك المجد في زي شاعر   وقد نحلت شوقا فروع المنابر

فوصله بألف دينار سوى الخلع والثياب (٢) .

وقصد علقمة بن عبد الرزاق العليمي بدر الجمالي بمصر وانشده قصيدته التي منها :

نحن التجار وهذه اعلاقنا   درر وجود يمينك المبتاع

.....

كسدت علينا بالشآم وكلما   قل النفاق تعطل الصناع

فاتاك يحملها اليك تجارها   ومطيها الآمال والاطماع

---

(١) مقدمة ديوان ابن الخياط ، ١١ (نقلا عن سير اعلام النبلاء للذهبي ١٢ : ١١٠ ، مخطوط)

(٢) الروضتين ١ : ١٦٨ (تحقيق حلمي) ومفرج الكروب ١ : ١١٦ــ١١٧

فالتفت بدر الى غلمانه وخاصته واصحابه "وقال من احبني فليخلع على هذا الشاعر قال علقمة : فوالله لقد خرجت من عنده ومعي سبعون بغلا تحمل الخلع وامر لي بعشرة الاف درهم" (١).

وكان نور الدين قليل الابتهاج بالشعر زيادة في التواضع (٢)، ولكن قلة الابتهاج هذه لم تمنعه من بسط ظلال رعايته على الشعراء ، فابن منير والقيسراني لازما دولته فترة واصبحا مؤرخي انتصاراتها شعرا ، وقصده ابن رواحة الحموى ، فكان "يتردد اليه في كل سنة ويمدحه ، وهو بتشريفه وبجائزته يمنحه .... وجعل نور الدين له من انعامه ادرارا يكفيه ، وكان يقبله ويقبل عليه ويروى فيه" (٣).

على ان الصلة بين الشعراء والممدوحين اجمالا لم تبلغ في هذا العصر درجة الالفة الحميمة والاتصال المستمر ، فلا نرى شاعرا يختص بملك أو أمير متغنيا بصفاته ، مكرسا شعره للاشادة به وتسجيل انتصاراته، بل تنقل الشعراء وتنقلوا كثيرا من ممدوح الى آخر ، متكسبين لا يقر لواحدهم قرار في ظل ممدوح .

اغراض الشعر : نظم شعراء هذه الفترة في اغراض عدة كالمدح والرثاء والهجاء والغزل بالغلمان والوصف .

ففي المدح : نهجوا على أن يستهلوا القصيدة بمقدمة غزلية يتخلصون منها الى المدح ، ومن امثلة المدح قول البازيار الحلبي (٤) في مدح الوزير المزدقاني وزير صاحب دمشق — تاج الملوك بورى :

تجافى الكرى ونبا المرقد وقل معينك والمسعد

---

(١) بدائع البدائه ٢ : ١٥٨-١٦٠
(٢) الروضتين ١ : ٥٨ (تحقيق حلمي) و ١ : ٢٢٩ (ط ١٢٨٧)
(٣) الخريدة ١ : ٤٨٢-٤٨٣
(٤) انظر عنه الخريدة ٢ : ١٦٥-١٦٨

لقد كنت اطمع فـــي زورة ... من الطيف لو انـــــني أرقـــد

وصفراء كالتبر كرخـــــية ... يطوف بها شادن أغيـــــد

جلا الصبح وهنا بلألائهــا ... فصبح الندامى به ســـــرمد

وفي المســتقلين رعبوبـــة ... بانوارها الركب يســـــترشد

لقد كنت اجحد وجدى بهـا ... فنمت جفوني بما اجحـــــد

ومنها في المـــدح :

ايا ابن الذين بنوا في العلى ... منازل من دونها الفـــــرقد

وأحيوا لمن قهروا ذكـــره ... فان قيل أفنوا فقد خلـــدوا (١)

وامثلة الرثاء قليلة في ما استطعنا الوصول اليه من شعر هذه الفترة ، ومنها قـــول نصر الهيتي (٢) في رثاء الصالح بن رزيك :

جل ما احدثت صروف الليالي ... عند مستعظم العلى والجـــلال

ملك بعد قبضه بسط الخطـــب يديه الى بني الآمـــال

جادت العين بعد بخل عليه ... بيواقيت دمعها واللالـــــي

وفيـــها :

ذهب الصالح الذى ألبس الايام من بعده ثياب الليـــالي

والذى كف كفه ايدى الفقر بمـــا ... بث من جزيل النـــوال (٣)

أما الهجاء فكان في اكثره مقطعات ، المقصود منها اللذع والسخرية ويخـرج بعضها الى البذاءة الشديدة . ومن امثلة الهجاء قول نجم بن ابي درهـــم (٤) الحلبي يهجو قوما من دمشق يقال لهم بنو نغاية :

ابني نغاية ان ســـعدكم ... جاءت به الايام عــــن غلـط

قد صار هذا الناس اكثرهم ... سقطا فكيف نغاية الســـقط (٥)

---

(١) الخريدة ٢ : ١٦٥-١٦٦

(٢) انظر عنه الخريدة ١ : ٢٣٠-٢٤١

(٣) الخريدة ١ : ٢٣٩

(٤) انظر عنه الخريدة ٢ : ١٨٢-١٨٤

(٥) الخريدة ٢ : ١٨٢

ولابن منبر (١) في هجو بخيل :

رغيفه من ذرّة ... يصنعه او أصغرا
مبيتا ملففا ... مبريقا مبيكرا
لو جاز في عين الذى ... يأكله لما درى
أو بلع الصائم ألفا ... مثله ما أفطرا
كأنما خبازه ... به تحدى البشرا
نهات قل : أعرضا ... تجده أم جوهرا (٢)

وقد اكثر الشعراء من التغزل بالغلمان في مقطعات كانت حصيلة المجالس الادبية ومجالس اللهو• ومن امثلة التغزل بالغلمان قول عرقلة الكلبي (٣) في غلام اسمه ياقوت :

قلت : وقد اقبل ياقوت ... في فمه درويا قوت
أسنة زرق بأجفانه ... أم جالت البيض المصاليت
كأنما الحاظه بابل ... فيهن هاروت وماروت (٤)

ولنجم بن أبي درهم الحلبي في غلام يسبح في نهر ثورا وهو يتجنب ويتجبن النزول في الماء (٥) :

يا واقفا متحيرا ... في الماء من خوف الغرق
أجر الغريق بدمعه ... ففؤاده يشكو الحرق
من قال انك مالك ... رق القلوب فقد صدق

---

(١) انظرعنه ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢ والخريدة ١ : ٧٦ـ٩٥ وبدائع البدائه ١:
١٤٨، ٢٤٣ـ٢٤٤ ومرآة الزمان ٨ : ٢١٧ـ٢١٨ وزبدة الحلب ٢: ٣٠٠ـ
٣٠١ والروضتين (تحقيق حلمي) ١: ٥٠ـ٥٧، ١٠٣، ١٠٦ـ١٠٧، ١١٤ـ١١٥،
١٢٣، ١٢٧ـ١٢٨، ١٣١، ١٤٣ـ١٤٤، ١٤٧ـ١٤٩، ١٥٦ـ١٦٣، ١٦٨ـ
١٦٩، ١٧٦ـ١٧٧، ١٨١ـ١٨٣، ١٩٠ـ٢٠٠، ٢٠٣ـ٢٠٧، ٢١٠ـ٢٢١،
٢٢٧ـ٢٣٥، ٢٥٤ـ٢٥٨، ٢٧٦ـ٢٧٨ ووفيات الاعيان ١: ١٣٩ـ١٤٢ والنجوم
الزاهرة ٥ : ٢٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ١٤٦ـ١٤٧

(٢) الخريدة ١ : ٩٠

(٣) انظرعنه الخريدة ١: ١٧٨ـ٢٢٩ وبدائع
البدائه ١: ٥٧ والروضتين (تحقيق حلمي) ١: ١٤٠ـ١٤١، ١٦٦، ٢٣٧ـ٢٣٨،
و (ط ١٢٨٧) ١: ١٣٢ـ١٣٣، ١٤١ـ١٤٢، ١٤٧، ١٥٥، ١٧٧

(٤) الخريدة ١ : ١٩٠

(٥) الخريدة ٢ : ١٨٣

الشعر اسود حـــالك والثغـــر مبيض يقـــق
وكأن طـــرة رأســـه ليل أُكب على فـــلق
هل في الورى احــد رأى شمسا تبدت في غســـق
يا لائمي في حـــبه ما اخترت ذاك بل اتفـــق
لا يأمن الانســـان في شرب الزلال من الشـــرق

وفي الوصف ، عالج الشعراء الكثير من الموضوعات ، فوصفوا مجالس اللهو والشراب ، ومن ذلك قول الامير يغمر بن عيسى (١) :

مجلس حف بالسنا والســـناء بايعتنا فيه يد الســـراء
في زمان صفا وراق ورق الجـــو لما وافى نســـيم الهـــواء
وكسا ربعه الربيع وحـــلا ، بلون الصـــفراء والحمـــراء
ضاع عرف الصهباء والوقتوالند مان فيه وطيب نشـــر الكبـــاء
فبلغنا كل المنى والامانـــي وغنينا عن الغـــنى بالغـــناء
وشغلنا عن القنا بالقنانـــي والتهينا عن الظبى بالظبـــاء
وانعكفنا على ارتشاف دم العنـــقود ضربا عن قصد سفك الدمـــاء (٢)

وللقيسراني يصف ابريق المدام (٣) :

ترى الابريق يحمله أخـــوه كلا الظبيين يلثمه ارتشـــافا
يظل كمطرق في القوم يبكـــي دما او ناكس يشكو الرعافـــا

ولهم مقطعات في وصف انواع المآكل ، قال عرقلة الكلبي يصف الططماج (٤) :

ألا رب طاه جاءنا بعد فترة بأطباق ططماج أشف من الثلـــج
وقد غارت السيخات فيها كانما يغالق ترك في طوارق افرنـــج

---

(١) انظر عنه الخريدة ١: ٣٥٤ — ٣٩٠
(٢) الخريدة ١ : ٣٦١
(٣) الخريدة ١ : ١٣٦
(٤) المصدر السابق ١ : ١٩٠

ولابن قسيم الحموى [١] يصف الرمانة [٢] :

ومحمرة من بنـــات الغصو ن يمنعها ثقلها أن تميـــــدا
منكسة التاج في د ســـتها تفوق الخدود وتحكى النهـــودا
تفض فتفترعن مبســــم كأن به من عقيق عقـــــودا
كأن المقابل من حبهـــا ثغور تقبل فيها خـــــدودا

وله في القطائف [٣] :

ومجدر عذبت مراشف ثغـــره فغدوت ألثمها ولست بآثـــم
مترقرق ماء الجمال بوجهـــه اندى واكرم راحة من حاتـــم
يبدو فتمحقه الاكف تنـــاولا وهو الحبيب الى نفوس العالـــم
قسما به وبما تجن ضلوعـــه يا خير من جذبت اليه عزائمـــي
ما كنت قبل نداك ألمح شخصه الا باعياد لنا ومواســـــم

وقد تطرقوا الى اوصاف طريفة ، منها قول اسماعيل بن ابي العساكـــر سلطان بن منقذ في النحل والزنبور [٤] :

ومغردين ترنما في مجلـــس فنفاهما لاذاهما الاقـــــوام
هذا يجود بما يجود بعكســـه هذاء فيحمد ذا وذاك يـــلام

وقول الشيخ عبد الرحمن الواعظ المعرى [٥] في تفاحة ذات لونين حمــــرة وصفــــرة [٦] :

تفاحة ذكرني نصفهـــــا خد حبيبي حين قبلـــــته
ونصفها الآخر شـــبهته صفرة لوني حين ودعـــــته

(١) انظر عنه الخريدة ١ : ٤٣٣-٤٨٠ والكامل ١١ : ٣٩ ومرآة الزمان ٨ : ١٩٤- ١٩٥ والروضتين (تحقيق حلمي) ١ : ٥٧-٥٨ ، ٨٣-٨٤
(٢) الخريدة ١ : ٤٤٣-٤٤٤
(٣) المصدر السابق ١ : ٤٦٩
(٤) الخريدة ١ : ٥٦٥
(٥) انظر عنه الخريدة ٢ : ٩٢-٩٧
(٦) الخريدة ٢ : ٩٧

وقول المشتهي الدمشقي [١] في الجرب [٢] :

رآني الفضل في فضلي سماءً ... فاطلع ذى الكواكب فيّ حبا

وكف بها يدى عن كل وغد ... يقبل ظهرها وكساه رعبا

واوقع بين اظفارى وبيني ... ليأخذ ثأرهن لدى غصبا

لاني كنت انهبهن قصا ... فصيرني لهن الدهر نهبا

وأحد مظاهر الشعر البارزة في هذه الفترة هو شعر الجهاد • وليس هذا النوع من الشعر بجديد على الادب ، فقد ضرب فيه ابو تمام والمتنبي من قبل بسهم وافر ، غير ان فيه اشياء تميزه عن ما قيل في هذه الفترة من شعر في اغراض اخرى :

فنجد في معظم هذه القصائد "الجهادية" ان الشاعر يبدأ معالجة ما هو في سبيل قوله مباشرة ، فمنها تختفي المقدمات الغزلية التي يستهل بها شعراء العصر مدائحهم • وكأن طبيعة الموضوع الشعرى وما فيه من القوة والاندفاع الذى تحركه عواطف الشاعر المتقدة وهو يصف نصرا جاء تحقيقا لما يصبو اليه هو وما ينتظره مواطنوه كانت تجنح به عن تكلف المقدمة الغزلية وما تقتضيه من محاولة التخلص الى المدح •

يقول ابن الخياط في مطلع قصيدته في مجد الدين ابق بن عبد الرزاق — احد مقدمي امراء دمشق — مادحا وحاضا على الجهاد [٣] :

فدتك الصواهل قبا وجردا ... وشم القبائل شيبا ومردا

وذلت لاسيافك البيض قضبا ... ودانت لارماحك السمر ملدا

وفي تهنئة عماد الدين زنكي بانتصاره على الروم عام ٥٣٢ هـ [٤] ، يبدأ ابن قسيم الحموى قصيدته بقوله :

---

(١) انظر عنه الخريدة ١ : ٢٦٥–٢٦٧ (٢) الخريدة ١ : ٢٦٧

(٣) ديوان ابن الخياط : ١٨٢–١٨٧

(٤) الروضتين ١ : ٨١–٨٣ (تحقيق حلمي) ومفرج الكروب ١ : ٨٢ وانظر القصيدة في الخريدة ١ : ٤٧٠–٤٧٢

بعزمك ايها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
اذا خطرت سيوفك في نفوس فاول ما يفارقها الجسوم

ويبدأ أسامة بن منقذ (١) قصيدته في مدح معين الدين أنر بعد ان لقي الفرنج وهزمهم (٢) :

كل يوم فتح مبين ، ونصر واعتلاء على الاعادى وقهر

وبعد وقعة انب الشهيرة التي كسر فيها الفرنج عام ٥٤٤ ، هنأ القيسراني نور الدين بقصيدة أولها (٣) :

هذى العزائم لا ما تدعي القضب
وذى المكارم ، لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

وقال ابن منير في اول قصيدته في تلك الوقعة (٤) :

أقوى الضلال واقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده من بعد ما علت دما عبراته

وفي هذه القصائد "الجهادية" خيط يصل بينها جميعا ، ذلك هو تحسس الشعراء بالنكبة التي حلت بالبلاد ، تحسسا بدأ تذكيريا تنبيهيا عند ابن الخياط ، والامراء لم يزالوا بعد غير واعين تماما لفداحة الخطر المحيط بهم :

أنوما على مثل هد الصفاة وهزلا وقد أصبح الامر جدا
وكيف تنامون عن اعين وترتم فأسهرتموهن حقدا

---

(١) انظر عنه الخريدة ١ : ٤٨٨ـ٥٤٧ ووفيات الاعيان ١ : ١٧٥ـ١٧٩
(٢) ديوان اسامة : ١٧٠ (٣) الروضتين ١: ١٥٢ (تحقيق حلمي)
(٤) الروضتين ١ : ١٥٦ (تحقيق حلمي)

فهو يصف خطر الفرنج وتعسفهم :

وشر الضغائن ما أقبلت لديه الضغائن بالكفر تحدا

بنو الشرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الجور قصدا

ولا يردعون عن القتل نفسا ولا يتركون من الفتك جهدا

ويتوصل على التحريض على الجهاد باسلوب كل عناصره الاثارة العاطفية والدعوة الى المحاماة عن العرض الذى كاد ان يهتك :

فكم من فتاة بهم أصبحت تدق من الخوف نحرا وخدا

وأم عواتق ما ان عرفن حسرا ولا ذقن في الليل بردا

تكاد عليهن من خيفة تذوب وتتلف حزنا ووجدا

فحاموا على دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت نقدا

وسدو الثغور بطعن النحور فمن حق ثغر بكم أن يسدا

وهو يأمل ان يجد بين المسلمين رجلا ذا عدة وقوة على دفع الاعداء ، يأخذ زمام المبادرة لاحراز النصر ، "فقد اينعت اروس المشركين" ولا بد من النصر :

فلن تعدموا في انتشار الامور أخا تدرإ حازم الرأى جلدا

يظاهر تدبيره بأسه مظاهرة السيف كفا وزندا

.....

فقد أينعت أروس المشركين فلا تغفلوها قطافا وحصدا

فلا بد من حدهم ان يفل ولا بد من ركنهم ان يهدا

ثم غدا هذا التحسس بالنكبة فيما بعد اكثر جلاء ووضوحا عند القيسراني وابن منير ، فقد عانى الامراء والشعب من الفرنج ما مثل لهم حقيقة الخطر واضحة ، وظهر الرجل القوى الجلد ممثلا بعماد الدين وابنه نور الدين من بعده ، فلم يعد بالشعر حاجة الى التنبيه والتذكير ، بل غدا تغنيا بالانتصار وتمجيدا له ، يقول القيسراني في تهنئة عماد الدين بعد فتح الرها [1] :

---

(١) الروضتين ١ : ٩٧-٩٨ (تحقيق حلمي)

ليهن بني الايمان امن ترفعت رواسيه عـــــزا واطمأن مهـــــاده
وفتح حديث في السماع ، حديثه شهي الى يوم المعاد معــــاده
اراح قلوبا طرن من وكناتهــــا عليها فوافى كل صدر فـــــؤاده

ويقول ابن منير في المناسبة ذاتها (١) :

فتح اعاد على الاسلام بهجــته فافتر مبســمه واهتز عطفـــاه
يهدى بمعتصم بالله فتكتــــه حديثها نسخ الماضي وأنســـاه
ان الرها غير عمورية ، وكــذا من رامها ليس مغزاه كمغـــزاه
.....
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها للشاكرين ويســتقنى صفايـــاه

وقوله بعد انب :

ردت على الاسلام عصر شبابه وثباته من دونه وثبـــــــاته
.....
واعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصْلاته وِصلاته وَصَـــــــلاته
.....
اليوم ملكك القراع قلاعـــــه متسنما ما استشرفت شــــرفاته
وغدا تحل لك الحلائل اسهم متوزعات بينهـــــن بناتـــه

ولقد كان لقدوم الفرنج الى البلاد أثره في الشعر ، فدخلت فيـــه الفاظ ومعان اثارها دخول بعض الشعراء مدن الفرنج ومشاهدتهم مظاهـــر حياة تختلف عما عهدوه .

وللقيسراني مقطعات كثيرة — سنأتي على دراسة تفصيلية لها فيما بعد — قالها عند دخوله انطاكية فيها الكثير من المعاني المستحدثة ، والالفاظ الفرنجية او التي تصف اشياء تختص بالفرنج .

---

(١) الروضتين ١ : ٩٩—١٠٠ (تحقيق حلمي)

ولابن رواحة الحموى (١) ابيات يصف فيها الداويةمن الفرنج ، وهم لا يرون مقاربة النساء لترهبهم (٢) :

أرى داوية الكفار خافــــت   به داء يضعف كل مـــــــــتن
أبوا نسلا مخافة نسل بنــت   تفارق دينهم او قتلة ابــــــن
فقد عقموا به من غير عقـــم   كما جبنوا به من غير جـــــبن

وتكلف ابن منير كلمات مشتقة من كلمات افرنجية (رغبة في التجنيس) :

حط القوامص فيه بعد قماصها   ضرب يصلصل في الطلى صعقاتــه
.....
وسقى البرنس، وقد تبرنس ذلة   بالروح مقرما جنت غدراتـــــه
.....
برنست رأس برنس ذلـــــة   بعد ما جاست حوايا جوســـلين (٣)

ميل الشعر الى الصناعة اللفظية : تغلب الصناعة اللفظية على شعر هـذه الفترة ، فقلما ترى شاعرا لا يعمد الى التجنيس والتطبيق والتورية وما الى ذلك ـ تختلف درجة اغراق كل شاعر فيها ولكنها ظاهرة بارزة في شعرهم . وقد كـــان الذوق الأدبي العام آنذاك يميل الى مثل هذه الصناعة ، فقد اشتهر بيــــت لمحمود الشيزرى (٤) اذ كان السابق الى نظم بيت جمع فيه ستة تشبيهـــات ، اذ اكثر ما جمع من تشبيهات في بيت واحد كان خمسة في البيت :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت   وردا وعضت على العناب بالـــبرد

فجاء الشيزرى بقوله :

تنضو السحائب عن بدر وأنجمه   وتمسح الطل عن ورد بعنـــــاب (٥)

---

(١) انظر عنه الخريدة ١ : ٤٨١ـ٤٩٦
(٢) الخريدة ١ : ٤٩٥   (٣) الروضتين ١ : ١٠٢ (تحقيق حلمي)
(٤) انظر عنه الخريدة ١ : ٥٧٥ـ٥٧٩
(٥) الخريدة ١ : ٥٧٥

ويعجب العماد الاصفهاني بقصيدة ليحيى بن سلامة الحصكفي [١] ويأخذها بالتفسير والتعليق ويقول انها "قصيدة في التجنيس ، من متاعه النفيس" ، وهي غاية في التكلف، يقول الحصكفي [٢] :

أطع الهوى فالعقل خاز خازم   والجهل يغرى وهو هاز هازم
واعمل فحرف الشرط صنعك والردى
عنه جواب وهو جاز جازم
واذا علوت فواص بالعلم العلى   تكمل فخبر القوم عال عالم

وقد تعسف بعضهم وبلغ عند هم التكلف اقصاه ، فنرى ابن قسيم الحموى ينظم ابياتا ويقصد ان لا تخلو كلمة من صاد وكلمة من سين ، يقول [٣] :

تصغي لتستمع اصطخا   ب لسانه الصم السوادر
وصل السجاحة بالصبا   حة سالب بالصوت ساحر
صلتان يستثني لعصمته وسبرته الخناصر

وينظم محمد بن يوسف بن منيرة الكفرطابي [٤] بيتين لم تخل كلمة منهما من زاي :

تجاوزت أجواز المفاوز جازيا   بأزرق عزته نزوع النواهز
وزجيت بزلا كالجوازى مجهزا   وأزجيت عزم الهبرزى المناجز

على ان هذا التكلف السقيم لم يطبع شعر الفترة بشكل يمكننا معه القول ان الشعر نحا في جميعه هذا المنحى من التكلف فهناك شعراء - ومنهم القيسراني - لم يبالغوا في استعمال المحسنات اللفظية ، كما ان المختارات التي استحسنها العماد - كانت احفل من سواها بالمحسنات اللفظية لميل العماد نفسه الى هذا اللون من الشعر والنثر . ولكنها ظاهرة توحي بان الاتجاه العام كان يتقبل مثل هذا التكلف بل ويرحب به احيانا ، وقد اسرف بعض اعلام الشعر في هذا العصر في الاتكاء على المحسنات اللفظية كابن منير مثلا .

---

(١) انظر عنه الخريدة ٢ : ٤٧١-٥٤٠   (٢) الخريدة ٢ : ٥٠٨
(٣) الخريدة ١ : ٤٤٧   (٤) الخريدة ١ : ٥٧٣

وقد كانت عناية الشعراء بالناحية اللغوية قليلة ، فابن الخياط مع علمه وادبه وحفظه لشعر الاقدمين كان يقدم بجرأة غريبة على "اتيان الرخص ، والتساهل في تعدى الحدود اللغوية ، والتجوز في الاشتقاق وصوغ المشتقات، والتوسع في القياس" (١) ، ووجد العماد الكاتب في ديوان ابن قسيم الحموى "لحنا فاحشا ، ووهنا بالخطل جائشا" فشحذ "من غراره ما قبل الشحذ" (٢) .

النشاط الادبي : اخذ بعض الشعراء بنظم قصائد على وزن وقافية قصائد من سبقوهم ، فليحيى بن سلامة الحصكفي قصيدة طائية على وزن قصيدة المعرى (٣) :

لمن جيرة سموا النوال فلم ينطوا ... يظللهم ما ظل ينبته الخط

وقصيدة الحصكفي (٤) :

أعذلك هذا أن رايتهم شطوا ... وفي الآل اذ غطوا هوادجهم غطوا

وقد أخذ فيها بعض اشارات المعرى وتشبيهاته ، فمن الاولى قول المعرى :

بنازلة سقط العقيق بمثلها ... دعا ادمع الكندى في الدمن السقط (٥)

وقول الحصكفي :

بسقط اللوى ابكى امرأ القيس منزل ... وليس اللوى داء ابن حجر ولا السقط

ومن الثانية قول المعرى :

وقد ثمل الحادى بها من نسيمها ... كان غاله من كرم بابل اسفنط

وقول الحصكفي :

وذى شنب عذب المجاجة ريقه ... كما قطبت بالمسك صهباء اسفنط

---

(١) مقدمة ديوان ابن الخياط: ٣٢ وقد اورد الاستاذ خليل مردم بك امثلة لتعدى ابن الخياط حدود اللغة على الصفحات ٣٢-٣٨

(٢) الخريدة ١ : ٤٣٤

(٣) انظر قصيدة المعرى في شرح التنوير ٢ : ١٥٧-١٧٠

(٤) الخريدة ٢ : ٥٠٣ - ٥٠٨

(٥) اشارة الى مطلع معلقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفي قصيدة الحصكفي اشارة الى قصيدة المعرى التي نسج على منوالها :

ولو أخر الشيخ المعرى ما ابتنى　　"لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا"

والى قصيدة ابن ابي حصينة المعرى(١) التي تسير على النمط ذاته :

ولا نظم الشامي بعد سماعها　　"لاية حال حكموا فيك فاشتطوا"

وللقاضي يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى ابيات على وزن بيت مهيار الديلمي (٢) :

وعطل كؤوسك الا الكبير　　تجد للصغير أناسا صغارا

وهي :

وسق النديم عقيقية　　تضيء فتحسب في الكأس نارا

تدور المسرة مع كاسها　　وتتبعه حيث ما الكاس دارا

ولا عيب فيها سوى انها　　متى عرست بحمى الهم سارا

ستلقى ليالي الهموم الطوال　　فبادر ليالي السرور القصارا (٣)

ولابن العلاني المعرى(٤) قصيدة على وزن قصيدة ابن هانئ المغربي (٥) :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر　　وأمدكم فلق الصباح المسفر

---

(١) انظر ترجمته في مقدمة الجزء الاول من ديوانه : ٦–٣٧ ، وقصيدته المشار اليها هي :

لاية حال حكموا فيك فاشتطوا　　وما ذاك الا حين عمك الوخط

وهي في ديوانه ١ : ١٠ – ١٣

(٢) انظر ترجمته في مقدمة الجزء الاول من ديوانه : هـ – و ، والبيت المذكور هو الثالث في قصيدته :

نديمي وما الناس الا السكارى　　ادرها ودعني غدا والخمارا

وهي في ديوانه ١ : ٣٥٠ – ٣٥٤

(٣) الخريدة ٢ : ٣٤٢

(٤) انظر عنه الخريدة ٢ : ٧٧–٨٤

(٥) القصيدة في ديوان ابن هانئ : ٣٢١–٣٢٩

قالها تلبية لاقتراح فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس على الشعراء بالنظم على وزن قصيدة ابن هانىء ، وقصيدة ابن العلاني هي [(١)] :

هل بارع الشعراء غير مقـصر عن بارع من مجـد ك المتخير

وللقيسراني قصيدة قالها في مجلسه ارتجالا وقد سئل ان يعمل على وزن قول ابن هانىء المغربي : "الصبر حيث الكلة السبراء" [(٢)] . ومطلع قصيدة ابن هانىء :

الحب حيث المعشر الاعـداء والصبر حيث الكلة السـبراء [(٣)]

وقصيدة القيسراني :

أرأيت ما فعلت بنا الصهبـاء من حيث تسبي العقل وهي سباء

وعارض بعضهم قصائد نظمها معاصرون لهم . فبعد خروج اسامة الى مصر (كان خروجه عام ٥٣٩) كتب الى الامير أنر بدمشق قصيدة ، يشير فيها الى ابـن الصوفي — وزير دمشق ، اولها [(٤)] :

ولما ، ولما رجونا عدلهم ظلمـوا فليتهم حكموا فينا بما علمـوا

ما مر يوما بفكري ما يريبهـم ولا سعت بي الى ما ساءهم قدم

فرد عليه الامير ابو الثناء محمود بن نعمة بن ارسلان الشيزري [(٥)] يجيبه عن قصيدته المذكورة بقصيدة اولها [(٦)] :

يا ظالما ناره في القلب تضطرم مهلا فظلمك تغشى نوره الظلـم

كأنك القوس تردى وهي صارخـة وما ألم بها من غيرها ألـم

وكانت بين الشعراء مراسلات ومكاتبات شعرية ، فقد كتب الحصكفي الى الرئيس ابي طالب الحسين بن محمد بن الكميت [(٧)] بقصيدته الطائية :

أعذلك هذا أن رأيتهم شـطوا وفي الآل اذ غطوا هوادجهم غطوا

---

(١) الخريدة ٢ : ٧٧–٧٨ (٢) ديوان القيسراني : ٥٣ – ٥٥

(٣) القصيدة في ديوان ابن هانىء : ١ – ٣٦

(٤) الخريدة ١ : ٥٣٣ – ٥٣٤ (٥) انظر عنه الخريدة ١ : ٥٧٥ – ٥٧٩

(٦) الخريدة ١ : ٥٧٦ (٧) انظر عنه الخريدة ٢ : ٥٤٧ – ٥٤٨

وفيـــــها :

بسطت بساط الأنس ثم طويـــته ولم يتصل كالطي ما بيننا البســط

فاجابه ابن الكميت بطائية على نفس الوزن منها (١) :

وما كان طي البسط الا لانـــني تيقنت أن البسط يخلقها البســط

وكتب ابن منير شعرا الى ابن قسيم الحموى، فقال ابن قسيم في جواب كتـــاب ابن منير وشعره على الوزن والقافية (٢) :

بعثت الكتاب فأهلا بـــــه يســـر النواظر تنميـــــــقه

لئن اخجل الـــروض موشـــيه لقد فـــضح الدر منســـوقه

غريب الصنـــاعة تجنيســـــه نفيس البـــضاعة تطبيـــــقه

ومنهـــا :

وواصلني بعد طول الجـــفا كما وصل الصب معشـــــوقه

فزايل جفـــني تأريـــــقه وعاود غصني توريـــــــقه

وكتب علم الدين الشاتاني (٣) ، وقد فصد يوما فغلط الفصاد وانفذ في عرقـــه مبضعه فقطعه ، الى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قصيدة طويله منهـــا (٤) :

اســـمع مقالة شـــاك من زحـــمة العـــواد

جار الطبيب عليـــــه لا زال حلـــف السهاد

بطعنة قـــد تعـــدت الى صمـــيم الفـــؤاد

فاجابه تاج الدين بقصيدة طويلة منهـــا :

حوشيت يا علم الديـــــن يا فـــتى الامجـــاد

مما يســـوء مواليك او يســــر الاعـــادى

وللعدى مـــا جنته شـــلت يد الفصاد

(١) الخريدة ٢ : ٥٤٧

(٢) الخريدة ١ : ٤٥٩ـ٤٦٠

(٣) انظر عنه الخريدة ٢ : ٣٦١ـ٣٨٤

(٤) الخريدة ٢ : ٣٤٠ـ٣٤١

وقد كانت هناك مكاتبات ومراسلات اشتهرت بين ابن منير والقيسراني ، سنأتي للحديث عنها فيما بعد .

وكان الشعراء يلجأون أحيانا الى غريب الاوزان والى لزوم ما لا يلزم والى الالغاز . فمن الأولى مقطعة لابن قسيم الحموي ، الابيات فيها على خمسة اوزان وخمس قواف [1] :

قل للامير اخي الندى والنائل الهطال للشعراء والقصاد

لا زلت تنتهك العدى بالذابل العسال في الاحشاء والاكباد

ووقيت من صرف الردى والنازل المغتال بالاعداء والحساد

ومن الثانية قول الحافظ ابن عساكر [2] :

ما خلت حاجاتي اليك وان نأت داري مضاعه

وأراك قد اهملتها وأضعتها كل الاضاعة

أنسيت ثدي مودة بيني وبينك وارتضاعه

ولقد عهدتك في الوفا ء اخا تميم لاقضاعه

ومن الثالثة قول ابن منير في اسم معمى وهو سرخاب [3] :

لي سيد ، بعض اسمه جنة وبعضه نار محبيه

من زاره كان كنصف اسمه أو صده كان كباقيه

تقلص العقرب من صدغه عن خده خوف تلظيه

وكم له في كبدي لسعة برودها الدرياق من فيه

وقول ابن رواحة الحموي في الجلنار ملغزا [4] :

وما تاج رومي لبيضة باسل عليها دم اذ فللتها المضارب

تناسب اقراط الديوك ذيولها كما العرف للتشريف منها مناسب

لها باطن كالزعفران تعلقت به من شرار او نضار ، كواكب

---

(١) الخريدة ١ : ٤٤٤

(٢) الخريدة ١ : ٢٧٥—٢٧٦

(٣) الخريدة ١ : ٨٧—٨٨

(٤) الخريدة ١ : ٤٨٨

حكتها صغارا بالخدود شبيه ما حكتها كبارا بالنهود الكواعب
اذا فرطت فهي العقيق مبددا وان رشفت فالشهد بالثلج ذائب

وكان للشعراء مجالس يتناشدون فيها الاشعار. فقد كان ابن الخياط يقعد عند الحسن بن يحيى بن رويبل الابار الدمشقي [١] على دكانه ويتناشدان الاشعار [٢]. واجتمع السابق محمد بن الخضر المعرى [٣] بابن الخياط بطرابلس، وكانا يجلسان في دكان عطار نصراني يعرف بأبي المفضل فيه ذكاء ومحبة للادب. وخرجوا يوما الى ظاهر البلد فجلسوا على غدير، فقال ابن الخياط بديها:

او ما ترى قلق الغدير كأنه يبدو لعينك منه حلي مناطق
مترقرق لعب الشعاع بمائه فتراه يخفق مثل قلب العاشق
فاذا نظرت اليه راقك لمعه وعلت طرفك من سراب صادق

ولم يفتح الله على السابق ولا بلفظة فقال العطار:

قد كنت ارجوان تكون مصليا حتى رأيتك سابقا للسابق

فاستحسنا ما اتى به العطار وجعلاه من مأثور الاخبار [٤].

وكان لهم مجالس تماجن ومداعبة. فقد "كان حسان بن عجل الكلبي المعروف بعرقلة اعور وكان يجلس على حانوت خياط بدمشق يعرف بابي الحسين الاعرج، وكان له طبع في قول الشعر. فقال له عرقلة يوما يداعبه:

ألا قل للرقيع أبي الحسين أراني الله عينك مثل عيني

فقال الاعرج مجاوبا له:

ألا قل لابن كلب لا ابن عجل اراني الله رجلك مثل رجلي

فخجل عرقلة من قوله وانصرف" [٥].

---

(١) انظر عنه الخريدة ١ : ٢٦١-٢٦٣ ومرآة الزمان ٨ : ١٦٥ - ١٦٦
(٢) الخريدة ١ : ٢٦١، مرآة الزمان ٨ : ١٦٥
(٣) انظر عنه الخريدة ٢: ١٢٥-١٢٧
(٤) بدائع البدائه ١: ١٢٣-١٢٤
(٥) بدائع البدائه ١ : ٥٧

الكتـــاب الاول

ترجمة القيسراني

أ ـ اسمه ونسبه ـ لقبه ـ مـولده

ب ـ مراحل حياته

١) الرحلة من عكا الى قيسارية

٢) في قيســارية

٣) في دمشـــق

٤) رحلته الى العراق وعودته الى دمشق

٥) في حلب

٦) في انطاكية

٧) في ظل نور الدين

٨) وفادته على مجير الدين في دمشق

٩) صلات اخرى بممدوحين آخريـــن

١٠) مرضه ووفـــاته

ج ـ حياته العائلية ـ أبناؤه ـ أحفاده

د ـ أساتذته ـ ثقافته ـ تلامذتـــه

هـ ـ صلاته ببعض الادباء والعلماء من معاصريه

و ـ بعض العناصر البارزة في شـــخصيته

اسمه ونسبه — لقبه — مولده

اسمه ونسبه :

ليس بين المصادر التي ترجمت له من خلاف في اسمه واسم ابيه وجده ، فهو محمد بن نصر بن صغير[1] وانفرد النعيمي بتسمية ابيه "نصر الدين" [2] وأوصل بعض المصادر نسبه الى خالد بن الوليد ، فقال ابن خلكان : "محمد ابن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد" [3] وهذا هو نسبه أيضا حسبما أورده ياقوت واليافعي [4]. وتوقف ابن خلكان في قبول هذا النسب — بعض التوقف — بعد أن وصفه بالمخزومي الخالدي فقال : "هكذا يزعم أهل بيته (يعني بيت القيسراني) واكثر المؤرخين وعلماء الانساب يقولون ان خالدا رضي الله عنه لم يتصل نسبه بل انقطع منذ زمان والله أعلم" [5] .

ومما يلاحظ على هذا النسب الذي يصله بخالد بن الوليد أن احدا لم يقل به من المؤرخين الذين عاصروه مثل ابن القلانسي والسمعاني وابن عساكر ، وكان الاخيران منهم تلميذين له ، وأول من ذكر هذا النسب ياقوت ثم ابن خلكان ، وسكوت المؤرخين المعاصرين عنه ربما قوى جانب الشك فيه ، وهو شك أثاره ابن خلكان نفسه . وقد ذهب الى هذا قدماء النسابين مثل مصعب الزبيري

---

(١) انظر الديوان : الورقة الاولى وأنساب السمعاني : ٤٦٨ و وتاريخ دمشق : مجلد ٤٠ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢ والخريدة ١ : ٩٦ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣١ وشذرات الذهب ٤ : ١٥٠ (وفيه صعبر بالعين ولعلها خطأ مطبعي) .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ٢ : ٣٨٨

(٣) وفيات الاعيان ٤ : ٨٢

(٤) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ومرآة الجنان ٣ : ٢٨٨

(٥) ابن خلكان ٤ : ٨٥ وانظر مرآة الجنان ٣ : ٢٨٨

حيث قال في معرض الكلام عن خالد ابن الوليد : "وقد انقرض ولد خالد بن الوليد ، فلم يبق منهم أحد" [١]. والحق أيضا أن القيسراني لم يدع لنفسه هذا النسب ومنطوق ما قاله ابن خلكان يدل على أن أهل بيته هم الذين انتحلوه لانفسهم بعد وفاته ، فقد ارتقى أحد أبنائه من بعده منصب الوزارة وبلغ أحفاده شأوا عاليا في الدولة من بعده ، فلعلهم حاولوا أن يسندوا هذا المركز الاجتماعي بنسبة تكفل لهم التفوق والنبل ، واستأنسوا بأن في أسرتهم واحدا سمي باسم "خالد" وأن القيسراني نفسه سمى ابنه "خالدا" ، فوصلوا أنفسهم بالبيت المخزومي ، وجاز هذا على ياقوت الذى كان ذا صلة حسنة ببعض القيسرانيين ، فأورد نسبهم دون تشكك أو توقف .

وقد يقال ان القيسراني لو كان يعتمد هذا النسب لافتخر به في شعره ولكن اغفاله لكل الشئون المتصلة بأهله يجعلنا لا نعلق اهتماما كبيرا على هذه الناحية .

لقبه :

كان يلقب "شرف الدين" [٢]، ويقول النعيمي انه كان يلقب "مهذب الدين أوعدة الدين" [٣] وقد كان بعض الناس في تلك العصور يحمل غير لقب واحد أحيانا ، غير اني أميل الى الاعتقاد بأن النعيمي حين لقبه "مهذب الدين" انما خلط بينه وبين ابن منير معاصر القيسراني الذى كان له مثل هذا اللقب [٤]. الا أن اقتران لقبه بالدين يوحي بتمييز خاص وتحديد اكتسبته الألقاب يومئذ ، وهو يتفق مع لفظة "شيخ" التي يطلقها عليه كل

---

(١) نسب قريش : ٣٢٨

(٢) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢

(٣) الدارس ٢ : ٣٨٨

(٤) وفيات الاعيان ١ : ١٣٩ وبدائع البدائه ١ : ٢٤٣

من ابن العديم وابن ظافر[١] .

كنيـــته :

المشهور في كنيته أنه أبوعبد الله ،الا عند السمعاني الذى قال انه ابـو بكرعبد الله[٢]، وفي هذا خطأ واضح . وكناه ابن ظافر مرة بأبي عبد الله ومـرة بأبي خالد ، ولا اشكال في ذلك ، لجواز تعدد الكنية للشخص الواحـــــد ، ولان ابنه خالدا أصبح مشهورا في التاريخ .

نســـبته :

ينسب الى عكا لانها مسقط رأسه والى قيسارية حيث نشأ والى حلب حيـث قضى شطرا كبيرا من حياته فهو قيسراني عكاوى[٣] ويدعوه ياقوت : "القيســراني الحلبي".[٤] وأشهر الثلاثة نسبته الى قيسارية ــ وهو حينا يدعى "القيســراني" وحينا "ابن القيسراني".[٥]ــ كأن النسبة الثانية تشير الى أصل أبيه لا الـــى أصله هو. وليس بين النسبتين فرق واضح لأن محمدا عاش شطرا من حياته فـــي قيسارية كما عاش ابوه ، كما أن بعض المصادر تجمع بين النسبتين دون احساس بأن بينهما فرقا[٦] .

---

(١) زبدة الحلب ٢ : ٢٩٣ ، ٢٩٩ وبدائع البدائه ١ : ٢٤٣
(٢) انساب السمعاني : ٤٦٨ و
(٣) انظر الخريدة ١ : ٩٦ ومرآة الزمان ٨ : ٢١٣ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢
(٤) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣١
(٥) القيسراني في تاريخ دمشق وذيل تاريخ دمشق والخريدة وبدائع البدائه والروضتين ، وابن القيسراني في معجم الادباء وابن خلكان ومفرج الكـروب ومرآة الجنان والدارس في تاريخ المدارس وشذرات الذهب
(٦) كذلك هو الحال في الكامل ومرآة الزمان والبداية والنهاية

مولـــده :

اتفقت جميع المصادر على أنه ولد بعكا [١] وأوثق الروايات في ذلك ما أورده ابن عساكر نقلا عن القيسراني نفسه اذ قال : "سألت أبا عبد الله محمد بن نصر بن صغير عن مولده ، فقال سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعكا" [٢] وهذا النص يعين مكان ولادته وزمانها ، الا أن ابن العماد يقول : "وكانت ولادته بعكا سنة سبع وثمانين وأربعمائة" [٣] وهذا وهم من ابن العماد أو خطأ من الناسخ ، لان هذا المؤلف نفسه يذكر أن القيسراني توفى عام ثمان وأربعين وخمسمائة ويردف ، "وعاش سبعين سنة" [٤] ومن هذا نفسه نستنتج أن مولد القيسراني انما كان عام ٤٧٨ وهو التاريخ الذى اتفقت عليه المصادر الأخرى .

---

(١) انظر مثلا أنساب السمعاني : ٤٦٨و والخريدة ١ : ٩٦ ومرآة الجنان ٨ : ٢١٣ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٥ وكذلك في سائر المصادر

(٢) تاريخ دمشق ، المجلد : ٤٠

(٣) شذرات الذهب ٤ : ١٥١

(٤) المصدر نفسه : ١٥٠

مراحل حياته

الرحلة من عكا الى قيسارية :

في ذلك العصر المليء بالمناحرات السياسية ، حسبما تقدم القول ، وفي ثغر عكا وفي عام ٤٧٨ على التحديد ولد محمد بن نصر بن صغير ، ولم تطل اقامة أهله في عكا بل ارتحلوا عنها الى قيسارية . ولا ندرى لم تم ذلك : أتكون سبل العيش قد ضاقت في وجه الاب ؟ اتكون الاحداث السياسية التي رافقت اجتياح عساكر مصر لسواحل الشام [1] هي سبب ذلك ؟ على ان اختيار نصر بن صغير أن يعيش في ميناء بحرى بعد اذ اضطرته ظروفه الى مغادرة الميناء الاول قد يوحي بأن حرفته المعاشية كانت تتصل أسبابها بالبحر .

في قيسارية :

لم يبعد نصر بن صغير عن عكا كثيرا حين استوطن قيسارية فقد حدد ناصرى خسرو المسافة بينهما بسبعة فراسخ [2]، وكانت قيسارية قوية يومئذ على اجتذاب السكان اليها ، اذ كانت من أمهات البلدان [3] متسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والاهل [4] تضم عددا من الجاليات المتنوعة ، ولا ريب في أن الازدهار التجارى البحرى قد أعانها على النمو والاتساع ، حتى قال ناصرى خسرو في وصفها قبل أن يعرفها محمد بن نصر بأربعين سنة : "مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج ... وبها عيون ماء جارية ومسجدها الجامع جميل ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته" [5]. وربما قدرنا أن هذا المكان الجميل قد أثر في نفس الطفل محمد

---

(١) الكامل ١٠ : ٩٤ وقد تم اجتياح عساكر مصر لسواحل الشام حوالي ٤٨٢

(٢) سفرنامه : ١٨

(٣) انساب السمعاني : ٤٦٨و

(٤) معجم البلدان : (قيسارية)

(٥) سفرنامه : ١٨

ابن نصر ومال باحساساته الى الارهاف وتذوق الجمال وصبغ نظرته بالرقة البالغة .

ولم يكد محمد بن نصر يناهز السادسة عشرة من عمره حتى استثير عن ذلك الموطن الجميل، وحرم نعمة الاستقرار فقد كانت الحملة الصليبية قد وصلت في اواخر رجب عام ٤٩٢ الى بيت المقدس واعمل الفرنج في اهلها السيف وهزموا الافضل امير الجيوش عندما كان بظاهر عسقلان ، واصبح الساحل الفلسطيني امامهم مكشوفا ، فافتتحوا حيفا عنوة عام ٤٩٤ وملكوا ارسوف وأخرجوا أهلها منها ، وفتحوا قيسارية وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها [١] ، وكان الشاب "محمد بن نصر" من الذين هربوا ناجين بأنفسهم .

الى أين ذهب ؟ تقول المصادر انه انتقل اولا الى حلب ثم اتى الى دمشق [٢]، وفي هذا بعض الغرابة فان مدينة دمشق أقرب اليه من حلب ان كان يطلب ملجأ بعد هربه من قيسارية ، وكانت البلدان جميعا تستوى بما فيها من فوضى وليس هناك ما يغرى بالمفاضلة لو ترك لصاحب الامر الخيار. ولذلك فاني أرجح أنه توجه اولا الى دمشق وان ذلك كان قبل عام ٥١٦ أو ٥١٧ بسنوات ، اذ من الثابت ان محمد بن نصر درس الادب في دمشق على رجل اسمه توفيق بن محمد [٣] وعلى ابي عبد الله ابن الخياط الشاعر [٤] . والاول منهما توفي عام ٥١٦ والثاني عام ٥١٧ . وهذا قد يدل على أن دخوله دمشق كان قبل عام ٥١٦ ببضع سنوات ، على أنا ان سلمنا انه قصد حلب اولا فلا بد من القول ايضا بانه عاش فترة في دمشق بعد ذلك ثم عاد من بعد

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٩ والكامل ١٠ : ٢٢٢
(٢) مرآة الزمان ٨ : ٢١٣ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢
(٣) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ومرآة الزمان ٨ : ٢١٣ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢ والدارس ٢ : ٣٨٨
(٤) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢

الى حلب ، فتكون اقامته في حلب قد تمت في مرحلتين ٠

في دمشـــق :

كانت دمشق بيد تاج الدولة تتش ، فلما قتل عام ٤٨٨ خلفه عليها ابنه شمس الملوك دقاق يعينه في تدبير الشئون ظهير الدين طغتكين أتابك الـــذى أصبح الوصي أيضا على تتش ابن دقاق حين توفى هذا عام ٤٩٧ ٠ وقد ســـار طغتكين في الناس سيرة حسنة ، فظهرت الغلات وانبسطت الرعية في عمـــارة الاملاك في ظاهر دمشق وباطنها (١) .

ودخل محمد بن نصر دمشق ـ وهي في هذه الحال من العدل والرخاء ـ وفي نفسه شغف الى العلم والادب ، اذ ان اقامته القصيرة في قيسارية لم تمكنـه من الطلب ولم تصله بالعلماء ٠ فأخذ يلازم مجالس العلم والادب في دمشـــق ، فتتلمذ على توفيق بن محمد وهو مهندس منجم اديب (٢) قرأ الادب وبرع فيـه وقال الشعر(٣) ، ولزم كذلك ابا عبد الله بن الخياط شاعر دمشق يومئذ وقـــرأ عليه الادب وروى عنه وتخرج به(٤) ٠ وكانت لابن الخياط مكانة من اصحـــاب الدولة في دمشق حتى ان وزير تتش وقع له بألف دينار ، وكان آخر شاعر وقع لـه في ذلك الزمان بألف دينار (٥) .

ويبدو أن ابن الخياط أعجب بنباهة محمد بن نصر وفطنته فأجازه روايـــة ديوانه وخصه بتلك الاجازة فكتب في نهاية الديوان : "قال مؤلفه ، كل مـــا رواه عني الشيخ الاجل الاديب أبوعبد الله محمد بن نصر بن صغير فهو مـــا

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٥

(٢) القفطي ، اخبار العلماء : ٧٤

(٣) مرآة الزمان ٨ : ١٠٣

(٤) مقدمة ديوان ابن الخياط : ٧ (نقلا عن سير اعلام النبلاء للذهبي ، المجلد ١٢ الورقـة ١١٠)

(٥) المصدر السابق نفسه

سمعه مني وقرأه علي ، وما رواه غيره فخالف ما في نسخته هذه فلا يعتد بـــه ، وكتبه أحمد بن محمد بن علي الخياط في سنة سبع عشرة وخمسمائة والحمد للــه وحده وصلى الله على من لا نبي بعده » [١]. وقد كانت لابن الخياط صلـــة بتاج الملوك أبي سعيد بوري بن طغتكين [٢] ــ وكان حينئذ وليا لعهد ابيه ــ حتى انه مدحه بثلاث قصائد ، وكان يحضر مجالس لهوه ، ويصفها في شعره [٣]. ولعل هذا الشاعر هو الذي قدم تلميذه الى تاج الملوك بوري ومهد لانشـــاء العلاقة بينهما ، اذ نرى محمد بن نصر القيسراني في عام ٥٢٣ يمدح تـــاج الملوك بوري ، على أثر انتصار هذا الوالي ضد جموع الافرنج الذين طمعـــوا في الاستيلاء على دمشق بعد استيلائهم على بانياس وقد استعان بوري عليهـم بأمراء التركمان ، وهاجم التركمان والعرب قافلة للافرنج عائدة من حـــوران نقضوا عليها [٤]. وقد سجل القيسراني هذا النصر في قصيدة لـــه مطلعـــها [٥] :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ... ومال أعدا مجير الدين مقتسم

---

(١) ديوان ابن الخياط : ٣٣١

(٢) ابو سعيد تاج الملوك بوري بن طغتكين . قام اثناء ولايته عهد ابيه بمهمات عدة : فتسلم جبلة سنة ٤٩٤ من صاحبها الذي ضايقه الفرنج ، وسفر الـى بغداد سنة ٥٠١ عند السلطان ، وناب في دمشق سنة ٥٠٣ و ٥٢٠ ، وتسلم بعلبك سنة ٥٠٣ . تولى امر دمشق في صفر سنة ٥٢٢ بعد ابيه بوصيـة منه واحسن السيرة في الرعية . نكب الباطنية في دمشق فحاولوا اغتياله سنة ٥٢٥ ونجا من الموت الا انه مات متأثرا بالجراحات التي تركوها فيه ، فـي رجب من السنة التالية ــ ٥٢٦ . وكان كثير الجهاد شجاعا ، اكثر الشعـراء مدائحه . (انظر ذيل تاريخ دمشق : ١٣٩ ــ ١٤٠ ، ١٦٠ ــ ١٦١ ، ١٦٥ ــ ١٦٧ ، ٢١٨ ــ ٢١٩ ، ٢٣٠ ــ ٢٣٤ ، الكامل ١٠ : ٢١١ ــ ٢١٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ــ ٤٧٢ ، ٤٧٨ ــ ٤٧٩ ، امراء دمشق للصفدي : ١٩ ، البداية والنهاية ١٢ : ١٩٩ ، ٢٠٤ ، شذرات الذهب ٤ : ٧٨) .

(٣) انظر ديوان ابن الخياط : ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٢ ــ ٢٣٣

(٤) تفصيل هذه الحادثة في ذيل تاريخ دمشق : ٢٢٤ ــ ٢٢٦

(٥) انظر القصيدة في الروضتين ١ : ١٤١ ــ ١٤٢ (تحقيق محمد حلمي)

وفيها يصف جموع الفرنج بقوله :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال في عدد ... يؤود حاسبه الاعياء والسأم

ووصف كذلك حالهم عند الانهزام فقال :

صاب الغمام عليهم والسهام معا ... فما دروا أيها الهطالة الديم

وأدبر الملك الطاغي يزعزعه ... حر الاسنة وهو البارد الشبم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم ... ان لم يزولوا سراعا زالت الخيم

ولا نستطيع أن نعد هذه القصيدة من أوائل شعر القيسراني ، فقد كان الشاعر يومئذ يناهز الخامسة والاربعين ، ومن المرجح انه مارس نظم الشعر قبل ذلك بسنوات غير قليلة ، الا اننا لا نستطيع ان نصل بين ما قاله من قبلها وبين أحداث تاريخية هامة . غير أن هذه القصيدة ربما كانت أول التفاتة يلتفتها القيسراني الى الواقع الذى كانت تعيشه بلاد الشام ، وهو الواقع الذى ربط به حياته من بعد ، وفي نطاقه تفتحت شاعريته وأثمرت ، واذا حكمنا منها على ما كانت قد بلغته طريقته الشعرية يومئذ وجدنا أن الصنعة لا تزال قليلة السيطرة على أبياته ، ورأينا أنه يتناول الامور تناولا قريبا فهو يتتبع خطوات الحادث واحدة واحدة بالترتيب ويتحدث عنها في قصيدته مغلفا لها بثوب من التهويل ليس فيه للخيال مجال كبير .

ولو عرفنا من أخبار القيسراني جانبا تفصيليا لاستطعنا أن نحكم بأنه أصبح شاعر الامير — أو احد شعرائه — ، وهناك حادثة رواها ابن ظافر تدل على أن الصلة توثقت بينه وبين تاج الملوك قال : " دخل (القيسراني) على الامير تاج الملوك ابي سعيد بورى بن أتابك طغتكين صاحب دمشق وبين يديه بركة نسيجة الفناء صحيحة البناء قد راق ماؤها وصفا ، وجر النسيم عليها ما رق من أذياله وضفا ، فهو تارة يرشف رضابها ويجعد ثيابها وتارة يسبكها مبردا

ويحيكها مسردا فأمره بوصفها فقال :

أو ما ترى طرب الغديـــــــر الى النسيم اذا تحـــرك
بل لو رأيت الماء يـلـــــــعب في جوانبه لســـرك
واذا الصبا هبت علـيـــــــه أتاك في ثوب مفـــــرك. (١)

وفي دمشق تولى القيسراني عمل الساعات على باب الجامع عند بـــاب جيرون [٢]. وكانت هذه الوظيفة تدر عليه شيئا من المال بالاضافة الى ما كـــان يناله من مكافآت على مدائحه. وقد أحب دمشق وتحدث عن جمالها فـــي شـــعره فقال [٣] :

أرض تحل الاماني من اماكنــها	بحيث تجتمع الدنيا وتفـــترق
اذا شدا الطير في اغصانها وقفت	على حدائقها الاسماع والحدق

رحلته الى العراق وعودته الى دمشق :

قد يقترن ارتحال القيسراني عن دمشق بما أصاب ممدوحه تاج الملـــوك الذي عدا عليه الباطنية في جمادى الاخرة من سنة خمس وعشرين وخمسمائة (٥٢٥) فضربوه بالسيف والخنجر وتركوه مثخنا بالجراح [٤]. وقد تكون هناك دوافع اخرى وراء هذه الرحلة التي انتهت بالعودة من العراق عام ٥٢٧ ، كأن نقــدر ان الشاعر كان يرجو لنفسه في بغداد حظا أطيب مما وجد في دمشق . ولكـــن احداث هذه الرحلة غير واضحة ، اذ لا نعرف ان القيسراني أقام لنفســـه

---

(١) بدائع البدائه ٢ : ٤٦ ـ ٤٧
(٢) تاريخ دمشق ، المجلد : ٤٠ وشذرات الذهب ٤ : ١٥٠
(٣) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٤٧
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٢٣٠ والكامل ١٠ : ٤٧١ ـ ٤٧٢

صلات مع رجالات الدولة في بغداد سوى السديد ابن الانبارى[1] كاتب الانشاء في الديوان العزيز ، وقد كان رجلا ذا معرفة بالادب والشعر والترسل[2]، رحب بالقيسراني وروى من شعره[3] ، ومدحه القيسراني بقصيدتين وصف في الاولى رحلته وما لقيه فيها من عناء حتى بلغ ممدوحه وحال الركائب التي اوصلته اليه :

وليلة بتنا والمهارى حواسر	يزرعليها للظلام جيوب
فبتن يبارين الكواكب في الدجى	لهن طلوع بالفلا وغروب
نواصل من صبغ الظلام كما بدا	لعينك من تحت الخضاب مشيب
خوافق في صدر الغضاء كانها	وقد وجبت منها القلوب قلوب
سوانح في بحرى سراب وسدفة	لهن اعتلاء بالضحى ورسوب

ونثر في القصيدة الثانية شيئا من اشواقه وحنينه الى دياره ، وكان اقرب الى المدح المباشر حين تحدث عن أهمية السديد ابن الانبارى لدولة الخلافة :

ليهنك مأثور الوغى عن خلافة	بك أخضر واديها واورق عودها
وأنى تخاف الضيم دولة هاشم	وآراؤك الانجاد فيها جنودها[4]

غير أن القيسراني لم يهنأ طويلا بصحبة السديد فقد ارسل الخليفة المسترشد السديد سفيرا الى دمشق ليتسلم دبيس بن صدقة صاحب الحلة وكان قد اصبح اسيرا في يد تاج الملوك بدمشق ، فوصل السديد الى دمشق

---

(١) محمد بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن رفاعة الشيباني سديد الدولة ابن الانبارى. كاتب الانشاء في الديوان العزيز، اقام في الانشاء نحو خمسين سنة وناب في الوزارة ، وكان المسترشد ينفذه رسولا عنه الى امراء الاطراف. كانت بينه وبين ابي محمد القاسم بن علي الحريري رسائل ومكاتبات. توفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعاش نيفا وثمانين سنة . مدحه الشعراء كالارجاني والغزى. (انظر الخريدة ١ : ٢٣ــ٢٧، مختصر الدبيثي للذهبي : ٧٣ــ٧٤، الاتابكة : ٨٤، الكامل ١٠ : ٣٩٩، زبدة الحلب ٢ : ٢٥٠، مرآة الجنان ٣ : ٣١٨، النجوم الزاهرة ٥ : ٢٦٠، ٣٦٤، شذرات الذهب ٤ : ١٨٤ــ١٨٥)

(٢) مختصر الدبيثي : ٧٣ (٣) المصدر نفسه : ٧٤

(٤) انظر القصيدة في الخريدة ١ : ١٢٩ــ١٣٠

في أواخر ذي العقدة سنة ٥٢٦ ، ولم تنجح سفارته وقفل عائدا الى بغداد فصادفته خيل اتابك زنكى بناحية الرحبة فأسر وحمل الى أتابك حيث حبسه ولم يطلقه الا بعد أن تشفع فيه الخليفة نفسه(١) .

هل أسرعت هذه الاحداث بعودة القيسراني من العراق ؟ لعلها فعلت ذلك ، لانا نراه عائدا الى الشام عام ٥٢٧ دون ان تثمر رحلته كثيرا من الناحية المادية ولكنها أثمرت نتاجا ادبيا من أجمل ما كتبه القيسراني ، أعني مقطعات الحنين التي نظمها في هذه الرحلة . ومن عجب أنه أصبح مقسم الهوى متنازع العواطف بين العراق او الشام :

أحب الشآم وأهوى العراق فخلفي هوى وأمامي هوى
فيا معشر الناس أشكو الغرام اليكم فهل عندكم من دواء(٢)

وهو يقول حين يلقي نظرة وداع على نخيل العراق :

يا نخيل العراق كن في امان الله مستودعا حيا الأنواء
مستقيما على طريق النعامى راسخا في مسارح الانواء
كاسيا من قوادم السعف الغض محلى بجوهر الاقنـاء
فالتفاتي اليك بعض حنيني وثنائي عليك رهن انثنائي (٣)

وقوله : " وثنائي عليك رهن أنثنائي " يدل على أنه حين غادر العراق كان يمني نفسه بالعودة اليه لان رحلته اليه لم تشبع لديه كل رغباته ، ولان الحنين الى أهله في الشام قد امضه :

---

(١) انظر ابن الاثير : الاتابكة : ٨٣-٨٤ وزبدة الحلب ٢ : ٢٥٠
(٢) الديوان : ٥٨
(٣) الديوان : ٥٦

أقمت بالانبار ذا لوعـــــة   مقســـومة بين حبيــــبين
أشتاق أهلي بدمشق وفـــي   بغداد حظ القلب والعـــين
فغي لقائي ذا فراقي لـــذا   قل لي متى أخلو من البـــين(١)

وفي هذه الابيات يحدد القيسراني أن شوقه مرتبط بدمشق وأن اهله فيها وهذا يقوى ما ذهبت اليه من أنه اتخذ دمشق دار اقامة بعد هجرته الاولى مـــن قيسارية. أما الاهل الذين يشير اليهم بدمشق فمن حقنا ان نفترض هنا انهـــم زوجه وأولاده .

ويتخيل أن "الحسناء" ـ أى حسناء ـ لقيته عند عودته الى دمشـــق فسألته لم طول غيبته ، فأجابها بأنه سيقسم حياته بالسوية فعام في الشـــام وعام آخر في العراق :

وتسألني الحسناء عن طول غيبـتي   فقلت لها عام لديك بعـــام
تباعد عن ذات السوارين روحـتي   فلم يبق من لمياء غير لمـــام
فها أنا ان بغداد هاجت صبابتي   بعثت الى دار السلام سلامي(٢)

ولما عاد القيسراني الى دمشق وجد ان ممدوحه تاج الملوك قد توفى على أثر مـــا أصابه من جراحات وخلفه ابنه شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل ، فبدأ عـــادلا رحيما ثم انقلب الى فساد وركوب للقبائح وأخذ يصادر العمال والمتصرفين بـــل عزم على مصادرة كتابه وخواصه(٣) .

---

(١) الديوان : ٥٥
(٢) الديوان : ٦٠
(٣) ابن القلانسي ٢٣٠ـ٢٣٤ ، ٢٤٥ـ٢٤٧ وابن الاثير ١٠ : ٤٧٨ ، ١١: ١١ ـ ١٢

في حلـــب :

مرة أخرى يبدو أن القيسراني فارق دمشق وكان في هذه المرة مضطرا غير مختار. اذ أن تلك الموجة من الظلم الذى نشره شمس الملوك قد أصابـــته برشاشها وكان القيسراني في صفوف الناقمين على تلك الحال ، ويحدثنا سـبط ابن الجوزى أن الشاعر هجا شمس الملوك وأن هذا الوالي تنكر له[١] ، فـــلاذ بالهرب ووجهته مدينة حلب التي ربما كان قد عرفها من قبل واستوطنها بعـض الوقت ، وكانت حلب قد أصبحت ضمن ما يحكمه عماد الدين زنكي من بـلاد ، وفيها استطاع الشاعر أن يجد لنفسه مورد رزق ثابت حين تولى خزانة الكتب[٢]، واستمرعلى اتصاله بالعلماء فسمع من هاشم بن أحمد الحلبي وابى طاهـــر الخطـــيب[٣] .

وتمثل هذه الفترة المرحلة الثانية — وهي المرحلة الخطيرة من الناحيـــة الادبية — في حياته ، اذ قد اتضح لديه اتجاهه الادبي ، بعد ان انتهـــى عهده بالتفتيش عن الحامي الملائم الذى يركن الى ظله ، وربط شعره بمبـــدأ الجهاد ضد الصليبيين ، وأصبح شاعر الدولة الاتابكية أولا في عهد عماد الدين ثم في عهد نور الدين ، وغدا شعره سجلا للحوادث والمعارك حسب تتابعهـــا الزمني ، وكثر ممدوحوه من رجالات الدولة وأصبح فيهم الوزير والقاضي والامـــين والنائب ، ولذلك حفلت هذه الفترة بنشاط أدبي ملحوظ وانتاج غزير .

---

(١) مرآة الزمان ٨ : ٢١٣ وانظر كذلك تاريخ دمشق : مجلد ٤٠ والنجـــوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢

(٢) تاريخ دمشق : مجلد ٤٠ ، والدارس ٢ : ٣٨٨

(٣) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ووفيات الاعيان ٤ : ٨٢

أ - فمدح ضياء الدين أبا سعيد الكفرتوثي [١] الذى استوزره عماد الدين سنة ٥٢٨ بقصيدته [٢]:

ما هذه الحدق النواتـــن ... الا ســـهام في كنائـــن

وهنأه بالبرء من مرض ألم به في قصيدة مطلعها [٣]:

لا يغرنك في السيف المضـــاء ... فالظبا ما نظرت منها الظباء

ب - ووصل أسبابه بأسرة الشهرزوريين ، ومنها القاضي نجم الديـــن الشهرزورى [٤] قاضي المملكة الاتابكية الذى ولي القضاء من بعد وفـــاة ابيه بهاء الدين عام ٥٣٢ ، فمدحه بقصيدته [٥]:

عن خاطرى نبأ الخيال الخاطر ... فاعجب لزورة واصل عن هاجر

---

(١) استوزره عماد الدين زنكي سنة ٥٢٨ ، وكان مشهورا بالكفاية وحب الخـــير وحسن الطريقة والمقاصد السديدة ، وقدم معه الى حلب . توفي في الخامس من شعبان سنة ٥٣٦ . (انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، الاتابكة : ٨٧ ، الكامل ١١ : ٦٠ ، زبدة الحلب ٢ : ٢٥٤ ، ٢٧٦)

(٢) الديوان : ٤٤ - ٤٦

(٣) الديوان : ٤١ - ٤٣

(٤) كان والده القاضي بهاء الدين الشهرزورى قد تولى قضاء ممالك عماد الدين كلها عام ٥٢١ ، وهو صاحب عزيمة ماضية وهمة نافذة عالية وتوفي عام ٥٣٢ بحلب فخلع على ابنه نجم الدين وولي القضاء مكان ابيه . تقدم نجم الديـــن عند عماد الدين زنكي وكان يبدى له النصح ، وكان متصلا بالادب ينظـــم الشعر . (انظر ديوان القيسراني : ٧ ، ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٦ ، بدائع البدائه ١ : ١٣٧ - ١٣٨ ، الاتابكة : ٦٥ ، ١٠٢ ، مرآة الزمـــان ٨ : ١٦٥ ، الروضتين ١ : ٨٧ (تحقيق محمد حلمي))

(٥) الديوان : ٧ - ١٢

واتصل كذلك بالقاضي الاجل كمال الدين أبي الفضل الشهرزوري(١) وقال فيه(٢) :

أحاكمها في مهجتي ولها اليد وأطلب منها رد قلبي فتجحد

وكان كمال الدين سفيرا للدولة ، وهو الذى استنجد السلطان مسعودا عندما نازل الروم والفرنجة حلب سنة ٥٣٢ أو ٥٣٤ (٣) ، ولم ينس القيسراني ان يشير الى هذه السفارة فقال :

فللملك وجه سافرعن سفارة يؤكدها منه الولاء المؤكد

---

(١) قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم بن مظفر بن علي الشهرزوري ابو الفضل بن ابي محمد . ولي قضاء الموصل وسمع وحدث . كان عماد الدين يعتمد عليه كثيرا فانفذه رسولا عنه الى بغداد سنة ٥٣٠ بعد خلع الراشد وبيعة المقتفي فاحرز لعماد الدين مكاسب وافرة . وولاه نور الدين قضاء دمشق والشام وفوض اليه امر المدارس والمساجد والاوقاف ودار الضرب ، وقيل انه استوزره . وذهب رسولا عن نور الدين الى بغداد عام ٥٦٨ . ولما دخل صلاح الدين دمشق عام ٥٧٠ أقره على ما هو عليه . توفي في المحرم سنة ٥٧٢ بدمشق وكان مولده عام ٤٩٢ . كان اديبا شاعرا طريفا فكه المجلس . (انظر الخريدة ٢ : ٣٢٣-٣٢٧ ، مختصر الدبيثي : ٥٥ ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٩ ، مرآة الزمان ٨ : ٣٤٠-٣٤١ ، الاتابكة : ٩٧-٩٨ ، ١١٠-١١٣ ، زبدة الحلب ٢ : ٢٢١ ، الروضتين ١ : ٨٩- ٩١ ، ٢٣٦ ، ٣١٠ (تحقيق محمد حلمي) ، ١ : ٢١٥ ، ٢٣٣ (ط١٢٨٧) ، مفرج الكروب ١ : ٦٨-٧٠ ، ٧٩-٨١ ، فوات الوفيات ٣ : ٣٣١-٣٣٢ ، طبقات الشافعية ٤ : ٧٤-٧٦ ، مرآة الجنان ٣ : ٢٨٥-٢٨٦ ، ٣٩٨ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٩٨ ، ٢٩٦-٢٩٧ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٤٢)

(٢) الديوان : ٣٦ - ٤٠

(٣) سافر كمال الدين الى بغداد مستنجدا السلطان ، ولكن السلطان مطل في تقديم المساعدة المطلوبة فما كان من كمال الدين الا أن رتب " تظاهرة " يقوم بها المصلون يوم الجمعة في جامعي القصر والسلطان ، وسارت " التظاهرة " الى دار السلطان صارخة مولولة ، فاستجاب السلطان للضغط ورتب جندا ليسافروا مع كمال الدين ولكن الاخبار جاءت بارتحال الفرنج عن حلب ، فعاد الشهرزوري دون ان يستصحب معه أحدا (الاتابكة : ١١٠ - ١١٣ والروضتين ١ : ٨٩-٩١ (تحقيق محمد حلمي) ومفرج الكروب ١ : ٧٩-٨١)

أنامت مساعيك الظبا في جفونهـــا فهل كان في تنبيه رأيك نرقـــــد
وداويت فيها ناظر السيف بعد ما مضى وهو طرف من دم الحرب ارمد

ومدحه بقصيدة ثانية مطلعها (١) :

أيا عاذلي في الحب ما لي وللعذل ويا هاجرى هل من سبيل الى الوصل

وقد ظلت صلته بكمال الدين من أقوى الصلات اذا نحن حكمنا على ما قاله فيه من قصائد سأعود للاشارة اليها في هذا الفصل .

ومن الشهرزوريين ايضا القاضي شمس الدين (٢) اخو القاضي كمال الدين ، وقد مدحه بالقصيدة (٣) :

أترى فوّق سهما من حســـام يا له من ضارب باللحظ رام

جـ ـ وسار في موكب عماد الدين يسجل انتصاراته على الفرنج ، ففي سنة ٥٣٤ توجه أتابك الى بلاد الفرنج مغيرا عليها فاجتمع لمقاومته ملوك الفرنـــج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالهم فلقيهم بالقرب من حصن بارين (بعريـــن) فانهزم الفرنج واحتموا بالحصن فحاصره أتابك فاستأمن اليه المحصورون وأخـــيرا أجابهم الى الامان (٤) ، وقد خلد الشاعر هذا النصر بقصيدته (٥) :

حذار منا وأنى ينفع الحـــذر وهي الصوارم لا تبقى ولا تـــذر

---

(١) الديوان : ٢٨ ـ ٣٢ ومعجم الادباء ١٩ : ٧٢ ـ ٧٥

(٢) شمس الدين القاسم بن عبد الله/ القاسم بن مظفر بن علي الشهرزوري ابو احمد بن أبي محمد . وهو اخو القاضي كمال الدين . ولي قضاء الموصل وكان يعظ وله كلام حسن وقبول . توفي في سنة ثلاثين او ثلاث وثلاثين وخمسمائـــة . (الخريدة ٢ : ٣٢٨ ، مرآة الزمان ٨ : ١٤١ ـ ٣٤٢ ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٩٥)

(٣) اول القصيدة في الديوان : ٤٧ ـ ٤٨ وآخرها على ورقتين لا تحملان رقمــا ، ومنها ابيات في الخريدة ١ : ٩٩

(٤) باختصار عن الاتابكة : ١٠٥ ـ ١١٠ والروضتين ١ : ٨٧ ـ ٨٨ (تحقيق محمد حلمـــي)

(٥) الروضتين ١ : ٨٨ ـ ٨٩ (تحقيق محمد حلمي)

ولاول مرة نلحظ كيف امتلأت نفس الشاعر بأمل أبعد من الكسب الذاتي حين نراه يتطلع الى عماد الدين ليكون منقذا لقطر الشام كله من أيدى الدخلاء :

ولا انثنى النصر عن انصار دولتـــه بحيث كان وان كانوا به نصـــروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكـــة كأنما حل في أكنافها عمـــــر

لقد سما الشاعر حينئذ الى نقل المشاعر الجماعية ولم يعد رجلا يفتش عن ممـــدوح يكفل له المعاش فحسب ، وأصبح يتصور الشام كله وقد حل العدل في ربوعه كأنمـــا حل فيه عمر بن الخطاب رمز العدالة الانسانية ومضرب الامثال فيها .

ولم يكن انتصار أتابك في بارين الا نصرا جزئيا اذا نحن قسناه بما حققه بعد بضع سنوات (عام ٥٣٩) في الرها ، اذ كانت هذه المدينة مفتاحا لكل ما حولهـــا من مناطق وكان المستولي عليها يستطيع ان يغل يد الدولة الاتابكية ويحرمها مـــن التصرف الحر حتى فيما تحكمه من مدن ، ولذلك انتهز اتابك الفرصة السانحـــة لفتحها ، وسار اليها بجيشه وحاصرها ثمانية وعشرين يوما حتى تمكن من دخولهـــا فاستباحها ووضع فيها حامية من جنده ، وكان صدى هذا الفتح بعيدا في كـــل بقاع العالم الاسلامي. ويعد اول انتصار حقيقي أحرزه المسلمون على الفرنج منـــذ ان بدأت الحملة الصليبية الاولى (١) .

ولا غرابة — وتلك هي قيمة فتح الرها — أن يكون الشاعر في طليعة المهنئين بها ، ولا غرابة أيضا اذا اندفع يمجد القوة ، ويرى أن السيف هو الحكم الوحيد في العزة والغلبة ، بعد أن رأى هذا السيف بين امراء الاقاليم وسيلة الفرقـــة والتطاحن ، لقد وجد في عماد الدين الرجل الذى وجه السيف وجهته الصحيحـــة فوقف ينشده على أثر ذلك الانتصار (٢) :

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى ابن الاثير في الاتابكة : ١١٨—١٢٣ ، وذيل تاريـــخ دمشق : ٢٧٩—٢٨٠ والكامل ١١ : ٦٤—٦٦

(٢) الروضتين ١ : ٩٧—٩٨ (تحقيق حلمي) والخريدة ١ : ١٥٤—١٥٥

هو السيف لا يغنيك الا جلاده وهل طوق الاملاك الا نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا سناها وان فات العيون اتقاده

وتحدث في القصيدة عن منعة الرها ، حديثا يذكرنا بأبي تمام وقصيدته في عمورية ، وتهكم بالفرنج وشمت بذلتهم :

الى اين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وعز رشاده

وانا لنشعر بالارتياح النفسي المطمئن لدى الشاعر وهو يقول في ختام قصيدته :

كذا عن طريق الصبح ايتها الدجى فيا طالما غال الظلام امتداده

ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده

ولم تكن مظاهر الابتهاج قاصرة على بلاط عماد الدين بل عمت الفرحة رجال الدولة، ولذلك نرى القيسراني يدخل على القاضي كمال الدين الشهرزوري مهنئا بفتح الرها أيضا في قصيدته : "هي جنة المأوى فهل من خاطب" (١)

وفيها يذكر دور كمال الدين في ذلك النصر فيقول :

ظفر كمال الدين كنت لقاحه كم ناهض بالحرب غير محارب

---

(١) الروضتين : ٩٨-٩٩ (تحقيق حلمي)

كما أنه هنأ أيضا وزير الدولة الاتابكية - بالموصل - الملقب جمال الدين (١) بقصيدته (٢) :

أما آن أن يزهق الباطل ... وأن ينجز العدة الماطل

ويقول له فيها :

أبا جعفر أشرقت دولة ... أضاء لها بدرك الكامل

ليهنك ما أفرج النصر عنه ... وما ناله الملك العادل

فتوح الفتوحات نظم القناة ... أعلى أنابيبها العامل

نقل للحقاق الطريق الطريق ... فقد دلف المقرم البازل

ومرة اخرى نجد القيسراني في هذه القصيدة يستشرف الامال الجماعية وهو يعبر عن أن فتح الرها "مقدمة" او باب للوصول الى القدس، والى استرداد الساحل، ويشعر بضرورة استرداد اجزاء من وطنه تقع في يد المغتصب :

فان يك فتح الرها لجة ... فساحلها القدس والساحل

فهل علمت علم تلك الديار ... أن المقيم بها راحل

---

(١) محمد بن علي بن ابي منصور الاصفهاني ابو جعفر. اتصل بزنكي ووزر له وكان ينفرد بالحكم في دولته. ثم اصبح وزيراً لسيف الدين غازى بن عماد الدين بالموصل، وعندما توفي سيف الدين عام ٥٤٤ وخلفه اخوه قطب الدين استمر جمال الدين في الوزارة. كان جوادا كثير الصدقات، بنى مسجد الخيف بمنى وزخرف الكعبة بالذهب واجرى الماء الى عرفات وبنى سورا على مدينة النبي. ولم تدم نعمته اذ اغرى الحاسدون بينه وبين قطب الدين فحبسه سنة ٥٥٨ وبقي في الحبس مدة سنة ثم مرض وتوفي عام ٥٥٩، ودفن بالموصل ثم اخرج نعشه وحمل الى مكة فالمدينة حيث دفن. له ديوان رسائل جمعه ابو السعادات ابن الاثير وسماه : كتاب الجواهر واللآلي من املاء الوزير الجلالي. مدحه الشعراء كالحيص بيص وابن منير وابن قسيم الحموى والعرقلة الكلبي وعلي بن يقظان السبتي. (انظر ذيل تاريخ دمشق: ٢٨٦هـ، ٣٠٦-٣٠٧، الخريدة ١: ١٨٠- ١٨١، الكامل ١١: ٧٤، ٢٠٢-٢٠٥، اخبار الحكماء : ١٦٠، مرآة الزمان ٨: ٢٤٨-٢٥١، زبدة الحلب ٢: ٢٩٦، الروضتين ١: ١٣٤-١٣٨ (ط ١٢٨٧)، مفرج الكروب ١: ١١٧، ١٤٦، مرآة الجنان ٣: ٣٤٢-٣٤٣، البداية والنهاية ١٢: ٢٤٨-٢٤٩، النجوم الزاهرة ٥: ٣٦٥، شذرات الذهب ٤: ١٨٥)

(٢) الخريدة ١: ١٠٨-١١١ والروضتين ١: ١٢٦-١٢٧ (تحقيق حلمي)

وليس هذا مقام الحديث عن شاعرية القيسراني وما أصابها من تكيف وتطور ولكن لا بد من أن ألمع الى أمر لافت للنظر في هذه القصائد الثلاث التي قالها في التهنئة بفتح الرها ، وذلك هو مطالعها ، فقد عودنا القيسراني في امداحه أن يبدأ بمقدمة غزلية طويلة ينبرها ويسد بها الى درجة الاملال احيانا أما في هذه القصائد الثلاث فانه يهجم على موضوعه دون مقدمة : — "هو السيف لا يغنيك الا جلاده" — "هي جنة المأوى فهل من خاطب" — "أما آن أن يزهق الباطل" .

د — وفي هذه الفترة التي تمتد حتى عام ٥٤٠ نجده يستمر في تقديم المدائح للقاضي كمال الدين الشهرزوري فيكتب اليه من حلب في ذلك العام بقصيدة مطلعها [١] :

يا سعد ما أحسنها شمائلا لو لم تكن سانحة شمائلا

ويقضي جانبا من وقته في الموصل مقبلا بالمدائح على الوزير جمال الدين ابي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الذي هنأه الشاعر أيضا بفتح الرها — كما تقدم — وفي ذلك يقول العماد الاصفهاني : "وقصد بقصائده ووفد بفوائده ، واسترفد بفرائده ووصل الى الموصل لاجتداء الجواد المفضل منبع الجود ومقصد الوفود ...." [٢] ، وله من المدائح فيه اثنتان احداهما [٣] :

ليت القلوب على نظام واحد ليذوق حر الواجد غير الواجد

والاخرى [٤] :

لمن القوام السمهرى سنانه ما أرهفت من لحظها أجفانه

---

(١) الديوان : ٣٢ — ٣٦
(٢) الخريدة ١ : ١٠٢
(٣) القصيدة في الخريدة ١ : ١٠٣ — ١٠٦
(٤) الديوان : ٢٥ — ٢٨ والخريدة ١ : ١٠٦ — ١٠٨

ويمدح وزيرعماد الدين ابا الرضا ابن صدقة (١) بقصيدتين ، أولاهما (٢) :

لو كان سرك للوشاة معرضـا   لم أغض من دمعي على جمر الغضا

والثانية — وقد انشده اياها بالجزيرة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة — (٣) :

في طاعة الحب ما انفقت من عمرى   وفي سبيل الهوى ما شاب من شعرى

في انطـاكية :

في سنة أربعين وخمسمائة عرضت للشيخ حاجة في انطاكية فسافر اليها وكـان يومئذ قد تجاوز الستين من عمره وخلف عهود الهوى وراء السنين . وكانت رحلـة قصيرة لم تتطاول أيامها الا أنها أمدت الشاعر بتجربة جديدة اذ كانت انطاكيـة يومئذ في يد الصليبيين ، ومركزا هاما من مراكز المسيحية ، تزدان بالكنائـس والاديرة ، مثل كنيسة السيدة وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع ، وبربارة وكانـت للافرنج خاصة، وكنيسة القسيان (٤) وأشمونيث — وهي للغريرية — ودير سمعان فـي جبل اللكام وحواليه من الاديرة والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والانهـار الجارية وضرب النواقيس في الاسحار وألحان الصلوات ما يتصور معه الانسان أنـه في الجنة (٥)، وفتنته روعة المباني وطبيعة الحياة والطقوس وجمال النساء ، وخلـد

---

(١) جلال الدين محمد بن احمد بن صدقة . كان وزيرا للراشد بالله عام ٥٣٠ وهـو المدبر لاموره . ونوى الراشد ان يقبض عليه في فتنة سنة ٥٣٠ ببغداد فالتجـأ الى عماد الدين فاجاره . وقرر عماد الدين مع الملك داود بن السلطان محمود ان يستوزر جلال الدين فاستوزره في ربيع الاخر سنة ٥٣٠، ثم عاد واصلح امر ابن صدقة مع الخليفة الراشد واعاده الى وزارته . وبعد عزل الراشد استخدمـه المقتفي في غير الوزارة . وقد استوزره عماد الدين سنة ٥٣٧ بعد موت وزيـره ابن الكفرتوثي ثم عزله سنة ٥٣٨ . كان فيه خير ودين وسمع وحدث . ولد سـنة ثمان وتسعين واربعمائة وتوفي ببغداد سنة ست وخمسين وخمسمائة . (انظـر ذيل تاريخ دمشق : ٢٧٧، مختصر الدبيثي : ٤٤، الاتابكة: ٩٢—٩٤، زبدة الحلب ٢ : ٢٧٦، ٢٧٨، مفرج الكروب ١ : ٦٦، فوات الوفيات ٢ : ١١١)

(٢) الخريدة ١ : ١٢٨—١٢٩   (٣) الديوان : ٢، والخريدة ١ : ١٢٠—١٢١

(٤) انظر وصفها في اخبار الحكماء للقفطي : ١٩٤

(٥) المصدر السابق نفسه

ذلك كله في مقطعات تسمى "الثغريات" تعد من أجمل ما نظمه القيسراني ، فقد خلص في تلك المقطعات من ربقة المدح وانتحى تصوير الاعجاب ووصف مظاهر حضارية غريبة عليه. وسأعود الى الحديث عن هذه القصائد الثغريات عند الحديث عن شعره ، ولكني أحب ان أقرر هنا أن القيسراني كان يحاول في هذه المقطعات الشهرة باختيار موضوع فريد لم يتوفر عليه شعراء آخرون ، وأن غايته ابراز موهبته الشعرية ، واذا كان الشريف الرضي — مثلا — قد طار صيته في الشعر بقصائده "الحجازيات" فلينظم القيسراني مقطعات يسميها "الثغريات" تكفل له شيئا من الشهرة المنفردة لغرابة موضوعها — نسبيا — ولست أظن أن ابن السنين يومئذ قد استسلم لصبوة عابرة ، وانما كان يحاول أن ينقل اعجابه — الاعجاب وحده — في عبارات موشحة بالغزل ، ومن امثلة ذلك قوله [1] :

أمعظمة الصليب وددت أني	وبيت الله عندكم صليب
اذا أقبلت قبلني حبيب	أسر به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق	يرى الا التفجع والنحيب
هبيني صورة يحنى عليها	أجيب اذا دعيت ولا تجيب
فلم يسمع بأطرف من فتاة	من الرهبان "قونتها" أديب

وكلمة "قونة" وما شابهها من ألفاظ تدلنا على أن الشاعر لابس البيئة في هذه الرحلة وتملح في شعره باستعمال بعض مصطلحاتها وأسمائها الدينية كقوله [2] :

فلولا التحرج في ملتي	طلعت عليهن في "برنس"
وقمت ألحن "قداسهن"	غير بليد ولا اخرس
. . . .	
فاقسم لو أنني استطيع	تحولت صورة "مرجرجس"

---

(١) الديوان : ٦٤

(٢) الديوان : ٧٠ — ٧١

وفي انطاكية رأى احتفال الفرنج ببعض اعيادهم ، وشاهد مغنية اسمها "ماريا" تضرب بالدف وتغني غناء تغايظ به النصارى وتقول [1] :

علقت بحبل من حبال محمد ... أمنت به من طارق الحدثان

فقال فيها :

الا يا غزال الثغر هل انت منشدى ... علقت بحبل من حبال محمد
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة ... تعود ولو عادت عقيما بلا غد
فالقاك فيها هادى الكاس حاديا ... وحسبك من ساع بها ومغرد

....

وعهدى بماريا سقى الله عهدها ... بما عندها من حاجة الهائم الصدى
وفي ذلك الزنار تمثال فضة ... تنقط خديه العيون بعسجد

ووصف الكنائس والاديرة التي رآها او زارها ، وغلا به الخيال احيانا حتى جعله يتصور لنفسه بعض مواقف الفتك والمجون كما في قصيدته التي مطلعها "لو كنت ثالثنا باشمونيثا" - ولكنه وهو عائد الى حلب ردته فتاة مسيحية من بلدة عمّ الى حقيقة الواقع حين خاطبته في لطف بكلمة "عمّي" وعندئذ شعر بالحياء والالم معا [2] :

وا حيائي وقد مررت بعم ... من مسيحية دعتني بعمي
أين عصر الشباب أيام ادعو ... ها صبيا بجدتي وبأمي

والحق ان مقطعات القيسراني في انطاكية تكمل الصورة التي يحب المؤرخ ان يرسمها للاثر الذى احدثه الصليبيون في ديار الشام • وعندما كر الشاعر من هذه الرحلة الى حلب كان على حد قوله قد خلف قلبه هنالك وغبط الاسرى على ما هم فيه من نعمة بمشاهدة ذلك الجمال [3] .

---

(١) الديوان : ٧٤-٧٦ والخريدة ١ : ١٠١-١٠٢

(٢) الديوان : ٧٧

(٣) الديوان : ٦٤ والخريدة ١ : ١٠٠

سرت وخلفت في ديارهم قلبا تمنيت أنه بصر
ولم أزل اغبط المقيم بها للقرب، حتى غبطت من اسروا

في ظل نور الدين :

قتل عماد الدين زنكي في ربيع الاول عام ٥٤١ أثناء حصاره قلعة جعبر، وذهب الرجل الذى وقف أيامه على الجهاد شهيدا ولقب بعد موته بالشهيد، ولا نشك في أن الشاعر رثاه وان لم تصلنا قصيدته في رثائه، وبعد مقتله خلفه ابنه نور الدين وعاد من حصار جعبر الى حلب، ومنذ هذا التاريخ حتى عام ٥٤٦ يظل ابن القيسراني في بلاط نور الدين جاعلا من شعره سجلا لاحداث جهاده ووقائعه. ومن المفيد ان نتتبع تطور شعره في هذه الفترة خطوة خطوة، فذلك سيفيدنا في تحقيق قصائده وضبط تواريخها :

(أ) في سنة ٥٤٣ تجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ويغيروا عليها، وعلم نور الدين بالامر فقصدهم بعسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا انجلى عشيره عن كسرة الفرنج كسرة عظيمة، وقتل الكثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل. وفي هذه الوقعة قال القيسراني (١) :

يا ليت ان الصد مصدود او لا فليت النوم مردود

وبالنسبة لهذه الوقعة وقصيدة القيسراني فيها نجد انفسنا امام خلط وتناقض شديدين في ما سطره ابو شامة في الروضتين. فهو يقول - نقلا عن ابن الاثير - ان نور الدين سار في سنة ٥٤٣ الى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج بقضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام فالتقاهم هناك واقتتلوا وانجلت المعركة

---

(١) الكامل ١١: ٨٩ والاتابكة : ١٦٤-١٦٥، زبدة الحلب ٢ : ٢٩٢ - ٢٩٣، مفرج الكروب ١ : ١١٤-١١٥، وانظر النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٤-٢٨٥ وهو يورد خبر وقعة نازل نور الدين فيها الفرنج سنة ٥٤٤ - ويخيل الي انه ينقل عن سبط ابن الجوزى لان مادتهما متشابهة - ويسميها "الكسرة المشهورة"، ويرى ان القيسراني قال قصيدته : يا ليت ان الصد مصدود، في هذه المناسبة، وهذا وهم.

عن نصرة المسلمين فقال القيسراني قصيدته : يا ليت ان الصد مصدود [1]. ثم يورد ان القيسراني قال في نور الدين قصيدة ، انشده اياها بظاهر حلب ، بعد كسرة الفرنج على يغرا وانهزامهم الى حصن حارم أولها [2] :

تغي بضمانها البيض الحداد   وتقضي دينها السمر الصعاد

وهذا وهم بين ، لان القصيدة : تغي بضمانها .... فيها اشارة الى معركة انّب - كما لاحظ ابو شامة نفسه - ووقعة انّب كانت سنة ٥٤٤ فلا بد ان تكون قصيدة : تغي بضمانها ... قيلت بعدها . اما وقعة يغرا فقد كانت سنة ٥٤٣ - كما روت المصادر التي اخذنا عنها - ومن ضمنها تاريخ الاتابكة الذى اعتاد ابو شامة النقل عنه . وما نراه ان ابا شامة ربما نقل خطأ عن ابن الاثير فكتب بصرى بدل يغرى في حديثه عن الوقعة التي قيلت فيها قصيدة : يا ليت [3] .... فأدى به هذا الخطأ الى ما وقع فيه من الخلط التاريخي ومن ثم الخلط في نسبة القصيدتين .

وفي القصيدة تغنى القيسراني بفضائل نور الدين وعدله :

وكيف لا نثني على عيشنا الـ   ـمحمود والسلطان محمود

فليشكر الناس ظلال المنى   ان رواق العدل ممدود

ونيرات الملك وهاجة   وطالع الدولة مسعود

---

(١) الروضتين ١ : ١٤٤-١٤٥ (تحقيق محمد حلمي) . القصيدة معظمها في الروضتين ، وما في المصادر الاخرى ابيات متفرقة

(٢) الروضتين ١ : ١٤٦-١٤٧ (تحقيق محمد حلمي)

(٣) انظر ابن الاثير ، الاتابكة : ١٦٤-١٦٥، فمنه يأخذ ابو شامة المادة التي اوردها عن وقعة "بصرى" المذكورة .

وصارم الاسـلام لا ينثني   الا وشـلو الكفر مقـدود
مكارم لم تك موجـودة   الا ونور الدين موجـود

وبانتصاراته السابقة على الفرنج :

وكم له من وقعة يومهـا   عند ملوك الشرك مشـهود
والقوم : اما مرهق صرعـة   او موثق بالقد مشـدود
حتى اذا عادوا الى مثلهـا   قالت لهم هيبته عـودوا

(ب) وفي صفر من سنة ٥٤٤ قصد نور الدين حصن حارم ـ وهو للفرنج ـ فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انّب فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية [ريمون دى بواتييه] واقتتل الفريقان قتالا شديدا فحلت بالفرنج هزيمة منكرة وقتل منهم جمع كثير وأسر مثلهم ، وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية . واكثر الشعراء من مدح نور الدين بعد هذه الوقعة (١) . وفيها يقول القيسراني من قصيدة انشده اياها بجسر

(١) الكامل ١١ : ٩٥ والاتابكة : ١٧٧ ـ ١٧٨ ، زبدة الحلب ٢ : ٢٩٨ ـ ٣٠٠ ، الروضتين ١ : ١٥٢ـ١٥٥ ، مفرج الكروب ١ : ١٢٠ ـ ١٢٢ ، وانظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ ـ ٣٠٦ وانظر البداية والنهاية ١٢ : ٢٢٥ و٢٢٦ حيث يقول ابن كثير ان هذه القصيدة قيلت بعد اخذ نور الدين سنجار وينسبها للفتح القيسراني ، وهذا وهم .

الحديد ، الفاصل بين عمل حلب وعمل انطاكية ، مطلعها [١] :

هذى العزائم ، لا ما تدعي القضب — وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت — تعثرت خلفها الاشعار والخطب

وفيها تصوير لحالة الفرنج في انخذالهم ، تجب منهم القلوب :

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة — فؤاد رومية الكبرى لها تجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة — أودى بها القلب وانحطت بها القلب

وشماتة وتذكير بهزيمتهم في يغرى في السنة السابقة :

قل للطغاة وإن صمت مسامعها — قولا لصم القنا في ذكره ارب
ما يوم انب ، والايام دائلة — من يوم يغرا بعيد ، لا ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم — كم اسلم الجهل ظنا غره الكذب

وفرحة بالنصر يكاد يرقص قلب الشيخ لها طربا وهو يصف ساحة الحرب تتكدس فيها جثث الاعداء بعد ان فعلت الاسنة والظبا فعلها فيهم :

طهرت ارض الاعادى من دمائهم — طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه — فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها — قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد — كما استقل دخان تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركة — لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال ، وليس له — سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبا ظفر حلو مذاقته — كأنما الضرب فيما بينهم ضرب

---

(١) القصيدة في الروضتين ١ : ١٥٢-١٥٥ (تحقيق حلمي) (وقد ذكر ابن الاثير في الاتابكة : ١٧٨-١٧٩ سبعة عشر بيتا منها ، وقال "وهي طويلة جدا" ، ووردت ابيات متفرقة منها في الكامل وزبدة الحلب ومفرج الكروب والبداية والنهاية) .

ودعوة الى جهاد اكبر ، باستعادة البيت المقدس الذى يرقب خلاصه من ايدى غاصبيه ، والساحل الذى فقد ماء صفائه :

فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب

يوليك اقصى المنى ، فالقدس مرتقب

وائذن لموجك في تطهير ساحله فانما انت بحر لجه لجب

وقد قال القيسراني قصيدة ثانية أشار فيها الى انتصار نور الدين في انّب ، مطلعها [١] :

تغي بضمانها البيض الحداد وتقضي دينها السمر الصعاد

وتدرك ثارها من كل باغ فوارس من عزائمها الجلاد

والاشادة فيها بوقعة انّب :

وان تتل القوافي ما تلته بانّب ما يؤبنها سناد

جرت بالنصر اقلام العوالي وليس سوى النجيع لها مداد

وطالت اروس الاعلاج خصبا فنادى السيف قد وقع الحصاد

(ج) ويتوفي سيف الدين غازى ابن اتابك زنكي في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ بعلة القولنج ، وقد كان سيف الدين كريما شجاعا رعى أهل العلم وبنى لهم المدرسة الاتابكية بالموصل وبنى فيها ايضا رباطا للصوفية ، وكان ممدحا مدحه الشاعر الحيص بيص [٢] ، فيقول القيسراني معزيا نور الدين [٣] :

(١) القصيدة في الروضتين ١ : ١٤٦ — ١٤٧ (تحقيق حلمي)
(٢) الكامل ١١ : ٩١ — ٩٢ ، مرآة الزمان ٨ : ٢٠٤ ، الروضتين ١ : ١٦٧ — ١٦٨ ، (تحقيق حلمي) ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٢٧ (وانظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٦)
(٣) الابيات في الروضتين ١ : ١٦٩ — ١٧٠ (تحقيق حلمي)

ما اطرق الجو حتى اشرق الافـق ان أغمد السيف فالصمصام يأتلـق

دون الأسى منك ، نور الدين، في حلب

ملك ينجلي عن وجهه الغســـق

كنت الشقيق الشفيق الغيب ، حين ثوى

أراق ماء الكرى من جفنك الارق

ومذكرا ان كل نفس ذائقة الموت :

ومدة الأجل المحتوم ان خفيـــت فان ايامنا من دونها طـــــرق

وانما نحن في مضمار حلبتهــــا خيل الى غاية الاعمار تســـتبق

وانه وان ذهب سيف الدين ، فقد بقي نور الدين رمزا لعلياء المسلمين ومطمحـــا لانظـــارهم :

ان كان صنوك هذا قد ثوى فذوى ففي مغارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحت بعده الاهواء نافـــرة أيدى سبا ، فعلى علياك تتفـــق

(د) ويحل عيد الفطر سنة ٥٤٤ فيهنئ القيسراني مولاه نور الديـــن بقصيدة أولها [١] :

أبدى السلو خديعة للائـــم وحنا الضلوع على فؤاد هائـــم

ورأى الرقيب يحل ترجمة الهـوى فاستقبل الواشي بثغر باســـم

---

(١) الابيات في الخريدة ١ : ١١٢ ــ ١١٤ ، ومنها اربعة ابيات في معجـــم الادباء ١٩ : ٧٩ ، وثمانية ابيات في الروضتين ١ : ٤٩ (تحقيق حلمي)

ويتغنى بمناقبه في اقدامه وشجاعته وانتصاراته على الفرنج وعدله ، ويهنيه بالفطر:

فتهن اوصاف العلى منظومة	فالدر انفسه بكف الناظم
جاءتك في حلل النباهة حاسرا	تختال بين فضائل ومكارم
عربية أنسابها لو أنها	لحقت أمية لانتمت في دارم
وتمل غرة كل فطر بعده	متسربلا أسنى ثواب الصائم
لا زال وجهك في عقود سعوده	بدر التمام مقلدا بتمائم

(هـ) وكان نور الدين بحلب عندما ملك اخوه قطب الدين الموصل بعد وفاة سيف الدين ، فكاتبه المقدم عبد الملك مستحفظ سنجار حينئذ ليأتي ويتسلمها ، فسار نور الدين في جماعة من مقدميه ودخلها ، فلما سمع قطب الدين ووزيره جمال الدين بالامر ساروا في العسكر ، وكادوا يقتتلون الا ان جمال الدين الوزير اشار بالصلح فاتفقوا على ان يأخذ نور الدين حمص وهي انفع له — وكانت تتبع مملكة الموصل — ويسلم سنجار لاخيه • فاتفقت كلمتهم وعاد نور الدين الى حلب واخذ معه ما كان عماد الدين قد ادخره في سنجار من الاموال وهي كثيرة جدا [١] .

فقال القيسراني في نور الدين عند قدومه وذلك في منتصف ذى القعدة سنة اربع واربعين وخمسمائة [٢] :

هذا الذى ولدت له الافكار	وتمخضت فألا به الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة	وردت وصفو ضميرها المضمار

---

(١) الكامل ١١ : ٩٢—٩٣ ، الروضتين ١ : ١٧٢—١٧٤ (تحقيق حلمي)

(٢) القصيدة في الروضتين ١ : ١٧٤—١٧٦ (تحقيق حلمي) (نقلا عن الديوان كما اورد ابو شامة) ومنها ثلاثة عشر بيتا في معجم الادباء ١٩ : ٨٠ — ٨١

واشـــار الى تملكه سنجارا :

وملكت سنجارا وما من بلــــدة　　الا تمنت انها ســـــنجار

(و) وكان نور الدين قبل توجهه الى سنجار محاصرا دمشق ، وسبـــب حصاره لها انه كان راسل ارباب دمشق يستدعي منهم المعونة على الفرنج فغالطوه، فجاء نور الدين وراسلهم مصرا على طلب الانجار ومؤكدا عدم رغبته في حربهـــم فجاءه الجواب بالرفض فعزم على الزحف على البلد ولكن الامطار منعته مـــن ذلك [١]. وفي المحرم من سنة ٥٤٥ تقرر الصلح بينه وبين ارباب دمشق وخـــرج اليه مجير الدين ابق والرئيس ابن الصوفي وبذلا له الطاعة والخطبة له على منـــبر دمشق بعد الخليفة ونقش اسمه على الدينار والدرهـــم فرضي بذلك وخلع علـــى مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وعلى الرئيس خلعة الوزارة وطيـــب قلوبهما ورحل الى حلب [٢] .

فقال القيسراني يهنئ نور الدين ويمجد هذا النصر السلمي [٣] :

لك الله ، ان حاربت فالنصر والفتح　　وان شئت صلحا عد من حزمك الصلح
وهل انت الا السيف في كل حالـة　　فطورا له حد وطورا له صفـــــح
سقيت الردينيات حتى رددتهـــا　　ترنح من سكر فخل القنا تصحـــو

وهو لا يزال يحث نور الدين الى تحقيق امل تضج به نفس الشيخ وهو طـــــرد الفرنج وتحرير البيت المقدس ، ويشيد باجتماع شمل المسلمين :

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ٣٠٨-٣١٠، الروضتين ١: ١٧٧-١٧٩ (تحقيق حلمـي)
(٢) ذيل تاريخ دمشق: ٣١٠، مرآة الزمان ٨: ٢٠٦، الروضتين ١: ١٧٩ (تحقيق حلمي) (وتفصيل الخلعة ذكره سبط ابن الجوزى)
(٣) الابيات في الروضتين ١ : ١٨٠ (تحقيق حلمي)

وقد علم الاعداء مذ بت جانحا — الى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
اذا ما دمشق ملكتك عنانها — تيقن من في ايليا أنه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى — فلا مهمه يحوى الضلال ولا سفح

(ز) ثم كان سنة ٥٤٥ أحد انتصارات نور الدين الكبيرة على الفرنج ، فقد جمع نور الدين عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب وعزم على محاصرتها فجمع جوسلين الفرنج فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل واسر منهم جمع كثير ، فشق الامر على نور الدين واراد ان يأخذ جوسلين بالحيلة فاحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب ان ظفروا بجوسلين فكمنوا له وأسروه . وكان أسره من اعظم الفتوح . وبعد أخذه اسيرا سار نور الدين فملك القلاع التي كانت في حوزته ومنها : تل باشر ، عزاز ، عين تاب ، كفرلاثا ، مرعش (١) .

فقال القيسراني في هذا النصر قصيدته (٢) :

دعا ما ادعى من غرّه النهي والامر — فما الملك الا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها — تصرف فيما شاء عن اذنه الدهر

يهنئ باستقرار أمر دمشق بعد تصافي نور الدين مع اربابها :

---

(١) الكامل ١١ : ١٠١ـ١٠٢ ، الاتابكة ٢ : ١٨٢ـ١٨٤ ، مرآة الزمان ٨ : ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، الروضتين ١ : ١٨٣ـ١٨٥ (تحقيق حلمي) . وقد اختلف المؤرخون في سنة أسر جوسلين فقال ابن القلانسي (٣١٠) وياقوت (معجم الادباء ١٩ : ٦٥) وسبط ابن الجوزى وابو شامة (وضع ابو شامة الخبر في أخبار سنة ٥٤٥ مع انه ينقل عن تاريخ الاتابكة لابن الاثير) ان ذلك تم سنة ٥٤٥ ، بينما ذكر ابن الاثير (في الكامل والاتابكة) وابن واصل (مفرج الكروب ١ : ١٢٤ـ١٢٥) ان ذلك تم سنة ٥٤٦ .

(٢) القصيدة في الروضتين ١ : ١٨٥ـ١٨٨ (تحقيق حلمي) ، ومنها تسعة وثلاثون بيتا في معجم الادباء ١٩ : ٦٥ـ٧٠ ، واربعة وعشرون في الخريدة ١ : ١٥٧ـ١٥٩ ، وابيات متفرقة في الكامل والاتابكة ومفرج الكروب .

ليهن دمشقا أن كرسي ملكهـــا حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك ، نور الدين ، مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر

وهو لا ينسى اقامته بدمشق وتردده اليها بعد خروجه عنها ، فيصف جلالـــة قـــدرها :

وهل هي الا كالحصان تمنعـــت دلالا ، وان عز الحيا وغلا المهـــر
ولكن اذا ما قستها بعداتهـــا فليس له قدر وليس لها قـــدر

ويصف أسر جوسلين ، وبغية وعتوه ، واستيلاء نور الدين على حصونه :

وقد كان في استبقائه لك منـــة هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر
كما اهدت الاقدار للقمص اسـره واسعد قرن من حواه لك الاســـر
طغى وبغى عدوا على غلوائـــه فاوبقه الكفران : عدواه والكفـــر
والقت بايديها اليك حصونـــه ولو لم تجئ طوعا لجاء بها القســـر
وامست عزاز كاسمها بك عـــزة تشق على النسرين لوانها الوكـــر

ويعيد بث ما تعتلج نفسه به من أماني بتطهير البيت المقدس واجلاء الفرنج عـــن الســـاحل :

كاني بهذا العزم لا فل حـــده واقصاه بالاقصى وقد قضي الامـــر
وقد اصبح البيت المقدس طاهـرا وليس سوى جارى الدماء له طهـــر
وقد ادت البيض الحداد فروضهـــا فلا عهدة في عنق سيف ولا نـــذر
وصلت بمعراج النبي صـــوارم مساجدها شفع وساجدها وتـــر
وان تتيم ساحل البحر مالكـــا فلا عجب ان يملك الساحل البحـــر

(ح) وفي المحرم من سنة ٥٤٦ عاود نور الدين النزول على دمشق وراســل من بها يطلب منهم الخروج معه لحرب الفرنج فرفضوا ، فقرب من البلد وحدثـــت مناوشات بين العسكرين ظلت مستمرة حتى صفـر . وتواصل الارجاف بقرب عســكر

الفرنج من البلد للانجاد فرحل نور الدين الى ناحية الاعوج ، وبعد رحيلــه وصل الفرنج واجتمعوا بمجير الدين ومؤيد الدين وقرروا قصد بصرى ، وضايقوهـا الا ان صمود واليها اضطرهم الى الانكفاء عنها مخذولين وعاد عسكر الافرنج الى اعماله في ربيع الاول . وعاد نور الدين فنزل قرب دمشق واستمر بالزحــف وترددت مراسلات انتهت بصلح وقبول الشروط المقترحة من الجهتين فرحل عن دمشق في منتصف ربيع الاخر[1]. وفي رجب توجه مجير الدين الى حلب فـي خواصه ودخل على نور الدين صاحبها واكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد ان بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه فـي دمشق . وانكفأ مجير الدين مسرورا ووصل دمشق ودخلها في شعبان[2] .

وقد سر القيسراني بهذا اللقاء والوفاق بين نور الدين ومجيره ، فاتفاقهما يعني وحدة صف قد تكون خطوة أولى في تحقيق أمل يراود خيال الشيخ دائما ، وهو الامل في تحرير البلاد من الفرنج الغاصبين . فقال يهنىء نور الديـن بطاعة دمشق له وانفاذها غر سلاطينها لتقديم فروض الولاء واظهار مشـاعر الود الذى تكنه له[3] :

وفت لك الدنيا بميعادهـا	باذلة افلاذ أكبـادها
وأوفدت غر سـلاطينها	عليك في همة انجادهـا

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣١٢ـ٣١٦ ، مرآة الزمان ٨ : ٢٠٩ـ٢١١
(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٣١٧ ، مرآة الزمان ٨: ٢١١ ، الروضتين ١ : ٢٠٨ (تحقيق حلمي)
(٣) الابيات في الروضتين ١ : ٢٠٨ ـ ٢٠٩ (تحقيق حلمي)

تبغي سناء أقصدت قصده | طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها | يوم التلاقي يوم ميلادها

وتطلعها المتسامي لسؤدده :

شامت دمشق بك برق العلا | فأرسلت اصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى | قد أشرق الافق بأيقادها

ويعدد مآثره التي يقصر الحصر عنها :

هذا ، وكم من سنةبدعة [1] | أعدمتها من بعد ايجادها
مآثر لو عدمت راويا | تكفل النظم باسنادها

وفادته على مجير الدين في دمشق :

لم يكن القيسراني قد سلا دمشق فهي موطن أحبه فيما مضى ولكن الخلاف بين امرائها وبين اتابكة الموصل صده عنها بعض الوقت حتى اذا تم الوفاق واصبحت دمشق تشايع الاتابكة فرح القيسراني بذلك : لمصلحة الجماعة ، اذ كان خروج دمشق عن طاعة الاتابكة يمكن للفرنج في البلاد ، وفرح تقديرا للمصلحة الذاتية : اذ اصبحت دمشق التي عاش فيها ردحاً من الزمن مطمح انظاره .

ولعل قدوم مجير الدين [2] الى حلب عام ٥٤٦ عرف القيسراني اليه فرأى منه ما سره وشجعه على قصده . فنرى الشيخ يذهب الى دمشق عام ٥٤٧ ويمدح مجير الدين بقصائد عدة [3] .

---

(١) يشير الى ابطال نور الدين آذان : "حي على خير العمل" في حلب سنة ٥٤٣

(٢) هو مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين . تولى امر دمشق بعد موت ابيه في الثامن من شعبان عام ٥٣٤ يدبر دولته معين الدين انر الذى كان هو الحاكم الفعلي حتى وفاته عام ٥٤٤ . ومجير الدين هو آخر من ملك دمشق من بيت ظهير الدين اتابك طغتكين . وظل حاكما لها حتى اخذها منه نور الدين عام ٥٤٩ ، فتوجه الى بغداد واكرمه الخليفة المقتفي . توفي ببغداد عام ٥٦٤ (انظر ذيل تاريخ دمشق: ٢٧٠-٢٧٣، الكامل ١١: ٨٥-٨٦ ، زبدة الحلب ٢: ٢٧٣-٢٧٤، ٣٠٤-٣٠٥، مفرج الكروب ١: ١٢٥-١٢٦، امراء دمشق ٤: ٤، النجوم الزاهرة ٥: ٣٨١-٣٨٢، شذرات الذهب ٤: ٢١١-٢١٢) .

(٣) الخريدة ١ : ١١٥

يقول في احداها (١) :

أقدك الغصن أم الذابل ومقلتاك الهند ام بابل
سحران ، هذا طاعن ضارب وتلك فيها خبل خابل

ويتأسى على علو سنه وقد جلل الشيب شعره فنفرت منه المها مع صبوته اليهن :

ما لي لا ألحظعبن المها الا دهاني سربها الخاذل
وما له ينفر من لمتي كأنه من اسد جافل

وقد غمره مجير الدين بفضله ونداه وكثّر حساده :

كثر حسادى حتى لقد تنبه الماجد والغافل
وكاد يعطي في نداه الصبا لو أن شيئا بالندى ناصل

وهو في الجود ذروة تستحيي السحاب امام تدفق ادرارها :

ما ساجلته المزن الا انثنى مستحييا من طله الوابل
لا يتناهى فيض معروفه وأى بحر ما له ساحل

وقال فيه قصائد أخرى لم يصلنا منها الا مقدماتها الغزلية ، وهي ثلاث ، الاولى مطلعها (٢) :

كلما غض هواكم من جفوني سكن اللوم اغترارا لسكوني

ومطلع الثانية (٣) :

أتراك عن وَتْرٍ وعن وَتَر ترمي القلوب بأسهم النظر

والثالثة مطلعها (٤) :

أرى الصوارم في الالحاظ تمتشق متى استحالت سيوفا هذه الحدق

(١) الابيات في الخريدة ١ : ١١٥-١١٩
(٢) الخريدة ١ : ١٤١
(٣) الخريدة ١ : ١٤٢
(٤) الخريدة ١ : ١٤٣-١٤٤

ويصف فيها تقلب سفينة حياته بين سرور واكتئاب ، ثم علو شأنه في النهايـــة باتصاله بمجير الدين :

صاحبت عمري مسرورا ومكتئبـــا	كذلك العيش فيه الصفو والرنـــق
وعشت أفتح أبوابا وأغلقهـــــا	حتى سمت بي علا ما دونها غلـق
نسرت مغتبق الادلاج معتنقـــا	ذرى عزائم من تعريسها العنـــق
لا ارهب الليل حتى شاب مفرقه	وهل يخاف الدجى من شمسه أبـــق

صلات اخرى بممدوحين آخرين

هناك بعض ممدوحي القيسراني الذين لم تسعفنا حوادث التاريخ على تبيـين صلته بهم واضحة ، وهؤلاء هم :

١ ـ الامير مجد الدين ابو سلامة مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ :

هو من بني منقذ اصحاب قلعة شيزر وهو والد اسامة . استخلفه اخـــوه ابو المرهف نصر بن علي لما حضره الموت فرفض وقال : والله لاوليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، فولاها اخاه ابا العساكر سلطان بن علي . كان له اليـــد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر ، وكان مشغوفا بالصيد يرى فيـــه نزهته ، فلم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الفرنج ونسخ كتاب الله . وقـــد سعى المفسدون بينه وبين اخيه سلطان امير شيزر فاوقعوا بينهما ، وتعاقب الاخوان شعرا . توفي ابو سلامة سنة ٥٣١ (١) .

---

(١) انظر الاعتبار في صفحات متفرقة منها ٤١ ـ ٤٢ ، ١٣٩ والخريدة ١ : ٥٥٨ـ٥٦٣ والروضتين ١ : ٢٨٠ـ٢٨١ (تحقيق حلمي)

وقد مدحه القيسراني بقصيدته [١] :

اذا ما تأملت القوام المهفهفـا   تأملت سيفا بين جفنيه مرهـفا

٢ ـ عز الدولة ابن منقذ : هو عز الدولة أبو الحسن علي بن مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ ، أخو اسامة [٢] . وقد هنأه القيسراني بالسلامة من جرح ناله بالقصيدة [٣] :

كل دعوى شجاعة لم تؤيـد   بكلام الكلام دعوى محـال

٣ ـ ابو الحسين بن أحمد بن زريق عفيف الدين : وقد مدحه بالقصيدة [٤] :

رنا وكأن البابلي المصفـقا   ترقرق في جفنيه صرفا معتـقا

ويظهر منها ان ابا الحسين كان متولي بيت المال .

٤ ـ ابو غانم سعد بن طارق : وقد مدحه بالقصيدة [٥] :

خاطر بقلبك اما صبوة الغالـي   فيما احب واما سلوة السـالي

ويبدو فيها ان ابا غانم كان احد رجال العلم ، يقدر شعر القيسراني ويقدر مدحته فيه ويصله لهذا ببره .

---

(١) الخريدة ١ : ١٣٣ـ١٣٤ ومنها بيتان في معجم الادباء ١٩ : ٧٨
(٢) الروضتين ١ : ٢٨٠ (تحقيق حلمي)
(٣) الخريدة ١ : ١٣١ـ١٣٢
(٤) الديوان : ١٢ـ١٦ ومنها في الخريدة ١ : ١٢٥ ثمانية ابيات
(٥) الديوان : ١٦ـ١٩ ومنها في معجم الادباء ١٩ : ٧٠ـ٧٢ خمسة عشر بيتا ، وفي وفيات الاعيان ٤ : ٨٢ وشذرات الذهب ٤ : ١٥٠ بيتان

٥ ـ القاضي الاجل السيد فخر الدين شمس القضاة ابو منصور ابن الطرسوسي :

وقد قال فيه القيسراني قصيدة اقترح عليه وزنها ، يهنيه فيها بعيد النحر ، وهي [١] :

ان الألى جمعتهم والنوى دار   جاروا فهل أنت لي من ظلمهم جار

٦ ـ علي بن مالك بن سالم العقيلي : صاحب قلعة جعبر . مدحه القيسراني بالقصيدة [٢] :

ألا كم ترامت بالس بمسافر   وكم حافر ادميت يا دير حافر

٧ ـ حسام الدين تمرتاش : هو حسام الدين تمرتاش بن الامير نجم الدين ايل غازي بن ارتق صاحب ماردين ونصيبين [٣] . توفي سنة ٥٤٨ . وقد مدحه القيسراني ـ كما اورد ابو شامة [٤] ـ ولم أجد القصيدة .

٨ ـ امين الدين : قال القيسراني من ابيات في امين الدين ، اولها [٥] :

فم وثغر وشنب   كأس وخمر وحبب

ولعله ان يكون امين الدين زين الحاج ابا القاسم متولي ديوان نور الدين ، وقد اعتقله نور الدين سنة ٥٥٤ بعد ان ثبت له تآمره عليه لمصلحة اخيه نصرة الدين امير اميران [٦] .

---

(١) الديوان : ١٩ ـ ٢٣ ومنها في الخريدة ١ : ١٥٢ سبعة ابيات
(٢) معجم البلدان (دير حافر)
(٣) اخباره في صفحات مختلفة من ذيل تاريخ دمشق والكامل ، انظر مثلا في الاول ١٩٩ ، ٢٤٣ والثاني ١٠ : ٤٣٦ـ٤٣٧ ، ٤٥٣ـ٤٥٦ ، ٤٦٦ـ٤٦٧
(٤) الروضتين ١ : ٢٣٥ (تحقيق حلمي)
(٥) الديوان : ٤٦ ـ ٤٧ والخريدة ١ : ١٤٨ ـ ١٤٩
(٦) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٥ والروضتين ١ : ٣٠٥ (تحقيق حلمي)

٩ ـ ابن الداية : هو مجد الدين ابو بكر ابن داية نور الدين واخو رضاعه، تربى مع نور الدين ولزمه وتبعه الى ان ملك الشام بعد والده ، فاستنابه في حلب وكان يثق به كثيرا . وقد اقطعه نور الدين شيزر وقلعة جعبر وتل باشر وحارم وعين تاب وعزاز . توفي في رمضان سنة ٥٦٥ (١) .

وقد قال القيسراني من بعض ما قاله فيه القصيدة (٢) :

دعوا ما مضى من قبل هذا لما بعد   فأقسم لولا المجد ما عرف المجد

ولعله قال فيه ايضا قصيدته (٣) :

أما لو كان لحظك نصل غمدى   لبت وثأر صرف الدهر عندى

وفيها :

ولو أني الاقي ما ألاقي   بمجد الدين صلت بأى مجد

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٠ ، زبدة الحلب ٢ : ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، الروضتين ١ : ٢٤٩ ، ٢٧٤ ـ ٢٧٦ (تحقيق محمد حلمي) و ١ : ١٥٢ ـ ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ـ ١٨١ ، ٢٣٢ (ط ١٢٨٧) ومفرج الكروب ١ : ١٢٣ ، ١٩١

(٢) الروضتين ١ : ٢٤٩ (تحقيق حلمي)

(٣) الخريدة ١ : ١٢٢ ـ ١٢٣

مرضه ووفاته

وعاد الشيخ الى حلب ، وكأنما عاود الحنين أذن مجير الدين أبق الى الترنم بمدائح القيسراني فيه ، فاستدعاه من حلب ، ووصل الشيخ الى دمشق يوم الاحد الثاني عشر من شعبان سنة ٥٤٨هـ[1] . و "نزل بمسجد الوزير ظاهر البلد" [2]، وقصد مجلس مجير الدين يوم الجمعة[3] في السابع عشر من شعبان "وحضر مجلسه وانشده قصيدة حبرها يائية مقيدة حسنة المعاني والمقاصد فاستحسنها السامعون ، واستجادها ، وشفعها بغبرها ووصله أحسن صلة" [4] ، ولم نقع على قصيدة يائية له في مجير الدين كتلك التي يشير اليها ابن القلانسي ، كما ان ابن عساكر اشار الى قصيدة واحدة فقط قالها القيسراني في مجلس نور الدين ؛ وهذه القصيدة ، وكانت آخر ما انشده هي[5] :

بين فتور المقلتين والكحل	هوى له من كل قلب ما انتحل
توق من فتكتها لواحظا	أما ترى تلك الظبا كيف تسل
يا ويحها نواظرا سواحرا	ما عُقل العقل بها الا اختبل

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢ ، معجم الادباء ١٩ : ٦٥ ، الروضتين ١ : ٢٢٧ (تحقيق حلمي)
(٢) تاريخ دمشق : مجلد ٤٠
(٣) المصدر السابق ذاته
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢
(٥) الابيات في الخريدة ١ : ١٤٤ _ ١٤٥

ومنها في مجير الدين :

اياك ان تحمل قتلي ظالمـــا	فما لخصمي بقبيلي مـــن قبل
ترى ولي الثـــأر ان اراده	فهل مجير من مجير الدين هـل

ولم يعش طويلا بعد قدومه الى دمشق اذ عرضت له حمى حادة ومعها اسهال مفرط [1]، ولعل هذه الحمى كانت بقايا الداء الذي عرض لاهل دمشق في السنة السابقة ، اذ شهدت دمشق في شوال سنة ٥٤٧ تغيراً في المـــاء والهواء اسفرعن حمى وسعال عما الخاص والعام والشيوخ والشباب والاطفـال وكثر الموت بين الناس نتيجة لذلك [2]. ويصف لنا ابن عساكر ايامه الاخيرة في دمشق ، يقول "ولم تطل مدته بعد قدومه وكان قد انشد والي دمشـق قصيدة يمدحه بها يوم الجمعة وكان انشده اياها وهو محموم فلم يأت عليــه الجمعة الاخرى ، وكنت قد وجدت اخي ابا الحسين رحمه الله قاصدا لقيـــاه فاصطحبني معه فقلت لاخي في الطريق اني اظن القيسراني انه ســـيلحق ابن منير كما لحق جرير الفرزدق بعد يسير فكان كما ظننت . فلما دخلنا عليــه وجدناه جالسا على فراشه فسألناه عن حاله فذكر انه قد تناول مسهلا ضعيـفا ولم ير من حاله ما يدل على الموت" [3] .

وتوفي بعد وصوله دمشق بعشرة أيام ليلة الاربعاء في الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٤٨ ودفن يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان [4]

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢

(٢) المصدر السابق : ٣١٩

(٣) تاريخ دمشق : المجلد ٤٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢، تاريخ دمشق : المجلد ٤٠ ، معجم الادباء ١٩ : ٦٥، الروضتين ١ : ٢٢٧ـ ٢٢٨ (تحقيق حلمي) وفيات الاعيان ٤ : ٨٥ شذرات الذهب ٤ : ١٥١ ، وانظر مرآة الجنان ٣ : ٢٨٧ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣١ والدارس ٢ : ٣٨٨ وهي جميعها تذكر سنة الوفاة فقـط دون اليوم والشـهر

بمقبرة باب الفراديس [(١)] .

ويرى سبط ابن الجوزى[(٢)] ان وفاته كانت في صفر سنة ٥٤٧ ويتابعه في تحديد سنة ٥٤٧ كتاريخ وفاة القيسراني ابن تغرى بردى ايضا دون ذكر الشهر[(٣)] . واجماع المؤرخين الذين ذكرناهم - ومنهم من كان معاصرا للشيخ كابن القلانسي وابن عساكر - على تحديد سنة وفاته على انها سنة ٥٤٨ يحدو بنا الى ان لا نقيم كبير وزن لرواية سبط الجوزى ، الا ان هذا لا يمنعنا من تبريرها . فنقول لعل الامر اختلط عليه اذ قرأ ان القيسراني وفد على دمشق سنة ٥٤٧ ومدح مجير الدين فظن ان وفادته هذه كانت هي التي لقي فيها حتفه لا الوفادة الثانية التي وقعت في السنة التالية - اى سنة ٥٤٨ . او لعله أخذ رواية عن مصدر يثق به - لا ندرى ما هو - لانه يورد رواية ابن القلانسي عن وفاة القيسراني بكاملها تقريبا دون أن يأخذها بالتفنيد او التاييد . ورواية صاحب النجوم الزاهرة لا يوثق اليها كثيرا ، فهو متاخر وربما يكون نقلها عن سبط ابن الجوزى .

---

(١) تاريخ دمشق ، مرآة الزمان ٨ : ٢١٣ ، وفيات الاعيان ، شذرات الذهب

(٢) مرآة الزمان ٨ : ٢١٣

(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢

حياته العائلية ـ ابناؤه ـ احفاده

ليس في ما بين ايدينا من اخبار القيسراني وشعره ما يمكن الاخذ بهديه لتكوين صورة عن حياته العائلية . اما ابناؤه فقد اشتهر منهم واحد امدتنا المصادر بالكثير من اخباره .

ابنه خالد :

فقد نال ابنه موفق الدين خالد شهرة فائقة من بعده ، وكان ذا حظوة لدى الملك العادل نور الدين ، حظوة اختلف المؤرخون على تحديد ماهيتها وان اتفقوا على علو شأنها . ولا ندرى متى قرب نور الدين خالدا اليه على وجه التحديد ، ولكن يمكننا ان نعين ذلك بتاريخ سابق لعام اثنتين وستين وخمسمائة ، فقد قدم العماد الاصفهاني دمشق في [illegible] العام المذكور[1] ، والتبس بالخدمة النورية فوجد "موفق الدين خالدا ولد القيسراني صدر مناصبها وبدر مراتبها .... وكان مستوفي المملكة وانا منشيها تارة ثم مشرفها .... وكان نور الدين رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغا من الامر كانه اشركه في الملك معه ، ولقد كان لبيقا بذلك حقيقا به"[2]. والعماد هنا يصرح باحدى وظائف خالد وهي استيفاء الدواوين ثم يومئ الى وظيفة اجل وهي الوزارة ، وهو في رواية اخرى نقلها عنه ابو شامة يصرح بوزارة خالد[3]. ويروى حفيد لخالد ـ هو معين الدين ـ ان خالدا كان "قريب المنزلة من نور الدين الى الغاية ، واليه استيفاء دواوينه بأسرها ، وكتابة الانشاء ،

---

(١) الروضتين ١ : ١٤٤ (ط ١٢٨٧)
(٢) الخريدة ١ : ١٢٥ ـ ١٢٦
(٣) الروضتين ١ : ١٩٩ (ط ١٢٨٧)

وامرة مجلسه ، وهو المشير والوزير ، والامور كلها عائدة اليه ...."[(١)]، جاعلا خالدا بذلك مستوفيا للدواوين ووزيرا - وهما امران اشار اليهما العماد - وكاتبا للانشاء . ويشير اليه سبط ابن الجوزي[(٢)] وابن العديم[(٣)] وابو شامة[(٤)] وابن كثير[(٥)] وابن العماد[(٦)] على انه وزير نور الدين ، ويذكر ابن واصل انه كان "متولي ديوان الاستيفاء"[(٧)] . وجميع هذه المناصب تجد لها ما يؤيدها في اخبار التاريخ .

وكان نور الدين يرجع اليه في الكثير من اموره ، فقد كتب اليه مرة رقعة بخطه يطلب منه فيها ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه وصيانة للخطيب عن الكذب ايضا ، ففعل[(٨)] .

وكانت له امرة مجلس نور الدين ، فنراه يتقدم اكابر الدولة في مجلس عند نور الدين التأم لتلقى رسول الخليفة المستضيء بالله العباسي الذى وصل بالخلع لنور الدين بعد ان امر نور الدين بقطع خطبة العاضد العلوى بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة[(٩)] .

---

(١) مفرج الكروب ١ : ٢٧٠
(٢) مرآة الزمان ٨ : ٣٢٣
(٣) زبدة الحلب ٢ : ٣٣٤
(٤) الروضتين ١ : ٣٠ (تحقيق محمد حلمي)
(٥) البداية والنهاية ١٢ : ٢٨١
(٦) شذرات الذهب ٤ : ٢٩٣
(٧) مفرج الكروب ١ : ٢٣٢
(٨) انظر رقعة خالد في مرآة الزمان ٨ : ٣٢٣، الروضتين ١: ٣٠ (تحقيق محمد حلمي)
(٩) انظر الروضتين ١ : ١٩٩ (ط ١٢٨٧) ومفرج الكروب ١ : ٢١٨ - ٢١٩

وكانت له كتابة الانشاء ، فقد اتفق ان حضر يوما بين يدى نور الدين واخبره انه رأى في منامه كأن نور الدين قد نزع ثيابه وامره بغسلها فغسلها . فاطرق نور الدين ، وظل بعدها اياما لا يستدعيه ، الى ان بعث في طلبه وابلغه انه فكر في منامه وارتأى تأويلا له ان يكتب خالد تواقيع ليسقط بها المكوس التي تؤخذ بغير حق ، فكتب خالد تواقيع ارسلها الى البلاد ذكر فيها ما اسقط من المكوس مفصلا [1] .

وكان اليه استيفاء الدواوين ، وهذا يتضح من رقعته التي اشرنا اليها . وأجل عمل قام به في الاستيفاء ، وهو آخر خدمة اداها لنور الدين ، هو توجهه الى مصر عام ٥٦٩ [2] لعمل حساب البلاد هناك وتقرير وظيفة على صلاح الدين يحملها كل سنة . وقام خالد بالمهمة وحصل له من الاموال ما لم يكن في خلده وحمله صلاح الدين هدية بالغة القيمة الى نور الدين [3] . وتوفي نور الدين في شوال عام ٥٦٩ وخالد في مصر ، ويقال انه اخذ لنفسه قسما مما كان يحمله . وعاد خالد الى دمشق فوصلها عام ٥٧٠ وقد تولى الامر الملك الصالح ابن نور الدين ، وكانت الحال فيها مضطربة ، اذ دخلها صلاح الدين في العام ذاته وحدثت بينه وبين الملك الصالح مجافاة اخذ خالد فيها جانب الملك الصالح [4] . ويبدو ان خالدا اقصي عن الحياة

---

(١) انظر تفصيل الرقعة في مفرج الكروب ١ : ٢٦٩-٢٧٩ ، وانظر كذلك زبدة الحلب ٢ : ٣٣٤ والروضتين ١ : ٢٨ ، ٣٧-٣٨ (تحقيق محمد حلمي) والبداية والنهاية ١٢ : ٢٨١

(٢) انظر مرآة الزمان ٨ : ٢٩٩ والروضتين ١ : ٢٠٦ ، ٢١٩ (ط١٢٨٧) ومفرج الكروب ١: ٢٣٢ ، ٢٥٧ - ٢٥٨

(٣) تفصيلها في الروضتين ١ : ٢١٩ (ط ١٢٨٧)

(٤) مرآة الزمان ٨ : ٣٢٨

السياسية بعدها فتوجه الى حلب ، اذ تغيب عنا اخباره حتى نرى وفاته فيها عام ثمان وثمانين وخمسمائة [١] . وقد كان خالد على قدر من التقدم في العلم وكتابة الانشاء ، سمع بمصر من عبد الله بن رفاعة [٢] ، ذا صلة بالادب وأهله ، يروى شعر والده ، وقد علا شأنه حتى بلغ الى حد ان خدمه ممدوحو والده [٣] ، ومدحه الشعراء كابن رواحة الحموى [٤] .

احفاده :

واشتهر من احفاده ثلاثة :

١ — ابو حامد عز الدين محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن داغر الحلبي ابن القيسراني، الكاتب المشهور . ولد بحلب في الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وخمسمائة وسمع بها من ابن طبرزد وحدث عنه . تقدم عند الملك الناصر صلاح الدين الصغير وخدمه مدة ووزر له . وولاه صلاح الدين نظر دواوين الشام . توفي بدمشق في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ست وخمسين وستمائة ودفن بجبل قاسيون . "كان رئيسا مبجلا مقدما سليم الصدر دمث الاخلاق حسن الظن بالفقراء والصلحاء" [٥] .

٢ — ابو بكر معين الدين محمد بن احمد بن خالد بن محمد بن نصر ابن صغير بن القيسراني . روى عن ابي محمد ابن علوان الاسدى وغيره . وروى عنه الدمياطي . "قال الشيخ شمس الدين الذهبي : والد شيخنا الصاحب فتح

---

(١) شذرات الذهب ٤ : ٢٩٣
(٢) شذرات الذهب ٤ : ٢٩٣
(٣) الخريدة ١ : ١٢٦ ، ١٥٥ — ١٥٦
(٤) انظر الخريدة ١ : ٤٨٥ — ٤٨٦
(٥) فوات الوفيات ١ : ١٤١

الدين عبد الله" . توفي هو وابن عمه عز الدين بدمشق في سنة ست وخمسين وستمائة (١) .

٣ ـ القاضي شرف الدين محمد بن عبد الله بن احمد ، وهو ابن الصاحب فتح الدين ابن القيسراني ، "وله في فن الانشاء اليد الطولى" ، وله شعر . وقد كان "رئيسا دينا متواضعا كثير المحاسن" مقربا من السلطان . توفي سنة سبع وسبعمائة (٢) .

وهناك قيسراني آخر ذكره ابن تغرى بردى (٣) في ترجمة الملك الظاهر ابي منصور غازى ابن صلاح الدين (صاحب حلب المتوفي سنة ثلاث عشرة وستمائة) على انه احد ارباب العمائم في دولة الملك المذكور . وارى انه ان صحت نسبته الى عائلة القيسراني الشاعر ، فلا بد ان يكون احد ابناء خالد الوزير .

---

(١) فوات الوفيات ٢ : ١٢٠

(٢) فوات الوفيات ٣ : ٢٧٠ ـ ٢٧١

(٣) النجوم الزاهرة ٦ : ٢١٨

اساتذته ـ ثقافته ـ تلامذته

اساتذته : تلقى القيسراني العلم في دمشق وحلب . ففي دمشق درس على توفيق بن محمد [(١)] وابي عبد الله ابن الخياط الشاعر ، وفي حلب سمع من هاشم بن احمد الحلبي وابي طاهر الخطيب [(٢)] .

وتوفيق بن محمد بن الحسين "نشأ بدمشق وقرأ الادب وبرع فيه وقال الشعر الحسن " [(٣)]، وهو نحوى كما يسميه سبط ابن الجوزى ، وقد شملت ثقافته عدا الادب والنحو الهندسة والتنجيم [(٤)] ، وكان "معلما وله تصانيف ... من تلامذته بدمشق مشايخ يصفونه بالعلم والفهم" [(٥)]. وتوفي في صفر سنة ست عشرة وخمسمائة ودفن بباب الفراديس [(٦)] .

---

(١) القفطي : ٧٤ ، مرآة الزمان ٨ : ٢١٣، معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ، وفيات الاعيان ٤ : ٨٢ ، الدارس ٢ : ٣٨٨

(٢) معجم الادباء ، وفيات الاعيان

(٣) مرآة الزمان ٨ : ١٠٣-١٠٤ ومن شعره :

وجلنار كاعراف الديوك على	خضر تميس كاذناب الطواويس
مثل العروس تجلت يوم زينتها	حمر الحلي على خضر الملابيس
في مجلس لعبت ايدى السرور به	لدى عريش يحاكي عرش بلقيس
سقى الحيا اربعا تحيا النفوس بها	ما بين مقرى الى باب الفراديس

(٤) القفطي : ٧٤

(٥) المصدر السابق ذاته

(٦) القفطي ، مرآة الزمان

اما ابوعبد الله احمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر [١] فقد ولد سنة خمسين واربعمائة بدمشق [٢]. وكان ابوه خياطا فاشتهر بالنسبة اليه، وقد نشأ في جوار ابن حيوس الشاعر ورأى ما هو فيه من النعيم، فود لو يكون مثله، واذ آنس في نفسه ميلا الى الشعر اخذ يؤدب نفسه بحفظ اشعار المتقدمين واخبارهم [٣]. وقد توسم فيه ابن حيوس خيرا، اذ انه قال، لما اجتمع به ابن الخياط وعرض عليه شعره، "قد نعاني هذا الشاب الى نفسي، فقلما نشأ ذو صناعة ومهر فيها الا وكان دليلا على موت الشيخ من ابناء جنسه"، وكان يوجههم بالنقد والارشاد، فقد كتب ابن الخياط مرة، وهو رقيق الحال لا يقدر على شيء، الى ابن حيوس يستمنحه شيئا من بره بهذين البيتين:

لم يبق عندى ما يباع بدرهم	وكفاك مني منظرعن مخبر
الا صبابة ماء وجه صنتها	عن ان تباع وأين اين المشترى

فلما وقف ابن حيوس عليهما قال: لو قال " وانت نعم المشترى لكان احسن" [٤].

وقد اخذ ابن الخياط الادب عن جماعة من الشيوخ في حلب، فدرس على الشاعر ابن حيوس "وروى عنه وعن السابق محمد بن الخضر بن ابي مهزول المعري وحسان بن الحباب وابي نصر بن الخيسي وعبد الله بن احمد بن الدويدة . وروى

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٢٧، شذرات الذهب ٤ : ٥٤ وانظر ترجمة وافية له في مقدمة ديوانه الذى حققه المرحوم خليل مردم بك : ٥ ـ ٣٩

(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٣٠

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٦٧ والبداية والنهاية ١٢ : ١٩٤

(٤) وفيات الاعيان ١ : ١٢٧ـ١٣٠ وانظر فوات الوفيات ٣ : ١١٩ـ١٢٠ وشذرات الذهب ٤ : ٥٤ ـ ٥٥

عنه احمد بن محمد الطليطلي ومحمد بن نصر القيسراني وتخرج به" [١]. وكـان ذا بديهة حاضرة في قول الشعر[٢] ، وقد اوضحنا سابقا مدى توثق علاقـة القيسراني به. وقد كان ابن الخياط من "الشعراء المجيدين" كما وصفه ابـن خلكان، "بلغ في النظم الذروة العليا"، وكان "شاعر الشام في زمانـه"[٣] . توفي ابن الخياط في رمضان سنة ٥١٧ هـ [٤] .

ثقافته : لا بد ان تكون ثقافة القيسراني متنوعة شاملة لمواضيع مختلفـة، فاساتذته فيهم المنجم المهندس والشاعر الاديب والمحدث . وتتحـدث المصادر عن ثقافته المتنوعة تلك ، فهو يحسن علم النجوم والهيئة[٥]، "له يـد قوية في الاحكام ... وحفظ الاخبار والتواريخ" [٦] ، عارف بالهندسـة والحساب [٧] ، وبالمنطق وكلام الاوائل كما استدل الفقيه علي الخيمي الواسطي من قـوله :

اذا كانت الاحداق ضربا من الظبى   فلا شك ان اللحظ ضرب من الضرب[٨]

---

(١) مقدمة ديوان ابن الخياط : ١٦-١٧ (نقلا عن سير اعلام النبلاء للذهبي)
(٢) انظر بدائع البدائه ١ : ١٢٣-١٢٤ ، ٢ : ١٠١-١٠٢ ، ١٠٩-١١٠ ،
(٣) انظر مرآة الجنان ٣ : ٢٢١ وشذرات الذهب ٤ : ٥٤ - ٥٥
(٤) وفيات الاعيان ، مرآة الجنان ، شذرات الذهب
(٥) ابن القلانسي : ٣٢٢ ، ابن عساكر : مجلد ٤٠ ، وفيات الاعيان ٤ : ٨٢ ، الدارس ٢ : ٣٨٨ ، شذرات الذهب ٤ : ١٥٠
(٦) ابن القلانسي
(٧) الدارس ، شذرات الذهب
(٨) الخريدة ١ : ٩٧

ويبدو أن اكثر جوانب ثقافته ظهورا كان معرفته بالفقه وعلم الحديث .
ويسند هذا الظن لدينا ما رأيناه من تلقيبه "بشرف الدين" و "بالشيخ"
وهما لقبان لهما دلالتهما فيما يتعلق بتقدم حاملهما في العلوم الدينية .
وتوحي الاعمال التي قام بها بالجوانب الاخرى من ثقافته ، فادارته الساعات
التي على باب الجامع بدمشق تستدعي معرفته بالنجوم والهندسة والحساب ،
كما ان توليه خزانة الكتب في حلب يشير الى شمول ثقافته فروع العلم كحفظ
التواريخ ومعرفة الحديث واخبار القدماء .

وفي شعره ابيات فيها اشارات الى مختلف فروع الثقافة التي تحلى بها ،
منها في الفقه :

اقضى القضاة اذا تغلغل فكره   في شبهة والحكم حكم الظاهر

. . . . . .

يوهمني في قوله باطنا   والحكم محمول على الظاهر

والهندسة :

من معشر نالوا العلى فتوزعوا   رتب الجلال على محيط دوائر

والنجوم :

قمرا تحاماه الافول وان علا   حدا على فلك الكمال الدائر

. . . . . .

وقهوة تحسب كاساتها   كواكبا في فلك دائر

. . . . . .

يا ايها النجم الذى حركاته   مترددات في بروج خواطري

والنحو :

فاما نصبت لرفع اسمها ... فانكما الفعل والفاعل

. . . . . .

تلك العوامل اى افعال العدى ... ما سكنت حركاتها بجوازم

. . . . . .

ينكر ما القاه من صده ... وأى فعل ما له فاعل

والحديث :

حذفت اسانيد الرواة لمجده ... جملا على متن الحديث السائر

فصوادق الآحاد من اخباره ... نسخت وجوب العلم بالمتواتر

. . . . . .

مناقبه بين الورى مستفيضة ... اذا رويت لم تعتبر صحة النقل

. . . . . .

فكل حديث في السماحة مسند ... الى غيرهم فهو الضعيف المفند

تلامذته : سمع منه ابو سعيد ابن السمعاني والحافظ ابن عساكر وابو المعالي الحظبرى الاديب (١)

وواضح ان علاقة السماع لا تعني اكثر من التقاء السامع والمروى عنه مرات تقل او تكثر. وهي لا توحي ابدا بعلاقة تتلمذ مستمر لفترة معينة ، بل ربما لم تتجاوز العلاقة رواية حديث واحد او ابيات من الشعر .

---

(١) معجم الادباء ١٩ : ٦٤ ، وفيات الاعيان ٤ : ٨٢

فأبو سعيد السمعاني [١] ذكره في الذيل الذى وضعه لتاريخ بغداد واورد له شعرا كان القيسراني قد انشده اياه بنواحي حلب وفي دير الحافر [٢] وعند الاشارة اليه في كتاب الانساب ذكر انه لقيه بدير الحافر ولم يشر الى تتلمذه عليه مع انه ذكر قيسرانيا آخر (هو ابو محمد عبد الله بن علي بن سعيد القيسراني) وقال انه من "شيوخه" وانه كتب عنه بحلب [٣].

والحافظ ابن عساكر [٤] ذكره في كتابه : تاريخ دمشق ، واورد له شعرا انشده اياه بدمشق ، او كتبه الى اخيه ابي الحسين ابن عساكر واشار الى

---

(١) هو ابو سعد (ويقال : ابو سعيد) عبد الكريم بن ابي بكر محمد السمعاني المروزى الشافعي الحافظ ، رحل في طلب العلم الى وراء النهر وسائر بلاد خراسان والى قومس والرى واصبهان وهمذان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام ، ولقي العلماء واخذ عنهم وجالسهم . صنف "تذييل تاريخ بغداد" وهو نحو خمسة عشر مجلدا ، و "الانساب" نحو ثمان مجلدات . كانت ولادته بمرو في شعبان سنة ٥٠٦ وتوفي بمرو في ربيع الاول سنة ٥٦٢ (وفيات الاعيان ٢ : ٣٧٨ـ٣٨٠ . وانظر الروضتين ١ : ١٤٩ (ط١٢٨٧) وطبقات الشافعية ٤ : ٢٥٩ـ٢٦٠ ومرآة الجنان ٣ : ٣٧١ـ٣٧٢ والبداية والنهاية ١٢: ٢٥٤)

(٢) انظر الخريدة ١ : ١٢٤ ، ١٢٥ وانظر وفيات الاعيان ٤ : ٨٢

(٣) انساب السمعاني : ٤٦٨ و

(٤) هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابو القاسم المعروف بابن عساكر . ولد اول المحرم سنة ٤٩٩ . كان احد ائمة الحديث المشهورين والعلماء المذكورين . سمع ببغداد سنة ٥٢٠ ورحل الى خراسان ودخل اصبهان ونيسابور وهراة ، ثم حج وسمع بمكة والجزيرة والشام . صنف كتبا كثيرة منها : تاريخ دمشق في ثمانين مجلدا ، وكتاب الاشراف في معرفة الاطراف ، وكتاب فضل اصحاب الحديث ، وكتاب تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الشيخ الامام ابي الحسن الاشعرى . توفي في رجب سنة ٥٧١ وصلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابورى وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين وله شعر لا بأس به . (مرآة الزمان ٨ : ٣٣٦ـ٣٣٧ ، وفيات الاعيان ٢ : ٤٧١ـ٤٧٣ ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٧٣ـ٢٧٧ مرآة الجنان ٣ : ٣٩٣ـ٣٩٥ ، البداية والنهاية ١٢: ٢٩٤ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٣٩ـ٢٤٠)

اجتماعه به ولكنه ايضا لم يشر الى علاقة تلمذة مستمرة او محددة . وابو المعالي الحظيرى [١] ذكره في كتابه "لمح الملح" واورد له قصيدة في التجنيس [٢] ، ولعل علاقته به لم تتجاوز ما ذكرناه ، ولا نستطيع الحكم قطعا اذ يعوزنا كتاب "لمح الملح" .

---

(١) هو ابو المعالي سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم الانصارى الخزرجي الوراق الحظيرى المعروف بدلال الكتب . كانت لديه معرفة وله نظم جيد . الف مجاميع ما قصر فيها منها كتاب "زينة الدهر وعصرة اهل العصر وذكر الطاف شعر العصر" الذى ذيله على "دمية القصر" لابي الحسن الباخرزى وجمع فيه جماعة من اهل عصره ومن تقدمهم اورد لكل واحد طرفا من امواله وشيئا من شعره . وكتاب "لمح الملح" ويدل على كثرة اطلاعه وتوفي في صفر سنة ٥٦٨ ببغداد . (وفيات الاعيان ٢ : ١٠٩ - ١١٠)

(٢) انظر الخريدة ١ : ١٢٣

صلاته ببعض العلماء والادباء من معاصريه

١ - ابن منير الطرابلسي : ان علاقة القيسراني بابن منير واضحة غامضة في الوقت ذاته . واضحة لان المصادر تجمع كلها تقريبا على انه كان بينهما مشاحنات ومكاتبات واجوبة ومهاجاة [١] وبعضهم شبههما بجرير والفرزدق [٢]، وغامضة لان هذه المكاتبات والمهاجاة لم يصلنا منها الا القليل . وليس غريبا ان يكونا متهاجيين متعارضين ، فقد كانا شاعري الشام في زمانهما ، والمنافسة تفرض المعارضة والمهاجاة ، كما كانا يختلفان في المذهب ، فالقيسراني سني ، وابن منير متشيع [٣] ينسب الى التحامل على الصحابة ، وقد كتب اليه القيسراني وقد بلغه انه هجاه [٤] :

ابن منير هجوت مني ... حبرا افاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدري ... فان لي أسوة الصحابه

وقد روى ان ابن منير كان يترفع على القيسراني ويستنكف "من الوقوع في معارضته ،والرتوع في مرعى مناقضته" [٥] .

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢ ، الخريدة ١ : ٧٦ ، معجم الادباء ١٩ : ٦٥ ، الروضتين ١ : ٢٢٨ ، (تحقيق حلمي) وفيات الاعيان ١ : ١٣٩ و ٤ : ٨٢ ، مرآة الجنان ٣ : ٢٨٧ ، شذرات الذهب ٤ : ١٤٦

(٢) الخريدة ١ : ٧٩ ، معجم الادباء ، مرآة الجنان

(٣) الخريدة ١ : ٧٦

(٤) وفيات الاعيان ١ : ١٤٢ ، ٤ : ٨٢ ، شذرات الذهب ٤ : ١٥٠

(٥) الخريدة ١ : ٧٧

وقد ظلت هذه المعارضة والمنافسة بينهما حتى بعد ان اصبحا في سن عالية .

يروى ابن خلكان ان ابن منير كان "كثيرا ما يبكت ابن القيسراني بانه ما صحب احدا الا نكب ، فاتفق ان اتابك عماد الدين زنكي صاحب الشام غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول الشاعر :

ويلي من المعرض الغضبان اذ نقل الواشي اليه حديثا كله زور
سلمت فازور يزوى قوس حاجبه كانني كأس خمر وهو مخمور

فاستحسنها زنكي وقال : لمن هذه ؟ فقيل : لابن منير وهو بحلب ، فكتب الى والي حلب يسيره اليه سريعا فسيره ، فليلة وصل ابن منير قتل اتابك زنكي ... فاخذ اسد الدين شيركوه صاحب حمص نور الدين محمود بن زنكي وعسكر الشام وعاد بهم الى حلب .... فلما دخل ابن منير الى حلب صحبة العسكر قال له ابن القيسراني : هذه بجميع ما كنت تبكتني به ! "(١) .

وكان لهما مجالس يتنافسان فيها في قول الشعر : "اجتمع مهذب الدين ابو الحسين بن منير والشيخ ابوعبد الله محمد بن صغير القيسراني الشاعران بحلب فمر عليهما صبي سراج يسمى يوسف مشهور بالحسن فسئلا القول فيه فصنعا . فكان ما صنع ابن منير :

يا سمي المتاح في ظلمة الجب لمن ساقه القضاء اليها
والذى قطع النساء له الايدى ومكن حبله من يديها
لك وجه مياسم الحسن فيه صكة تطبع البدور عليها

وكان ما صنع القيسراني :

لا تخدعن فما الحسام المرهف الا الذى يحويه جفن اوطف

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٤٢

واذا رأيت اللحظ يعمل في الحشى | عمل الاسنة فالقوام مثقف
ويح المحب اما يخالس نظرة | الا هفا بالقلب ظبي اهيف
بالله يا نفحات انفاس الصبا | ما بال غصن البان لا يتعطف
يا مسكرى وجدا بخمر جفونه | قل لي أتلك لواحظ ام قرقف
بادر جمالك بالجميل فربما | ذوت المحاسن او ابل المدنف
واسبق عذارك باعتذارك قبل ان | ياتي بعزل هواك منه ملطف
ان جاز ان يرث الملاحة باسمه | احد فانك يوسف يا يوسف ٠ (١)

٢ ـ البديع الاصطرلابي : بديع الزمان ابو القاسم هبة الله بن الحسين ابن احمد البغدادى ، طبيب عالم وفيلسوف متكلم ، كان متقنا لعلم النجوم والرصد ، فريد وقته في عمل الاصطرلابات وآلات الفلك وحصل له منها الاموال الكثيرة وذلك في ايام المسترشد ٠ ٠كان خليعا يستعمل المجون في شعره وله شعر كثير فائق حسن المعاني ٠ اختار ديوان ابن حجاج ورتبه على مائة وأحد واربعين بابا وسماه "درة التاج من شعر ابن حجاج" ، وله زيج سماه العرب المحمودى الفه للسلطان محمود ابي القاسم بن محمد ٠ توفي عام ٥٣٩ أو ٥٣٤ في بغداد (٢).
وقد كتب اليه القيسراني قصيدة اولها (٣) :

اعرب الفضل من بديع الزمان | عن معان عزت على يونان
ما تلاها لما تلاها ولكن | فاتها حائزا خصال الرهان

---

(١) بدائع البدائه ١ : ٢٤٣ ـ ٢٤٤
(٢) انظر القفطي : ٢٢٢ ، مرآة الزمان ٨ : ١٨٤ـ١٨٥ ، عيون الانباء ٢ : ٣٠٠ـ ٣٠٣ ، وفيات الاعيان ٥ : ١٠١ ـ ١٠٢ ، مرآة الجنان ٣ : ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٥ ، شذرات الذهب ٤ : ١٠٣ـ١٠٤
(٣) عيون الانباء ٢ : ٣٠١ـ ٣٠٢

فرد جوابها قصيدة لم يبق منها شيء سوى هذه الابيات (١) :

ايها السيد الذى اطرانـــي بمديح كالدر قـــد اطغانـي
والذى زاد في محلي وقــدرى وأذل الشاني بتعظيم شـــاني
فتعنفقت اى باني كمـــا قـــال مجيب الطباع سهل الجنـــان
وترشحت للجواب فاعـــيا في وانسل هاربا شـــيطاني
مجبلا مجبلا يقول اتـــق اللــــه فمالي بما تروم اليـــدان
أتظن الوهاد مثل الروابـــي أم تخال الهجين مثل الهجـــان
أم تجارى طرفا يفوت مـدى الطـــرف اذا تجاريا في مكـــان
بحمار يفوته الزمن المقـــعد (م) ان ارسلا غداة الرهـــان
فاكتنفني سترا فشعرى بخطي حين يبدو لناظر عورتـــان

٣ ـ اسامة بن منقذ : يبدو ان علاقته بأسامة لم تزد على علاقة الشـــاعر بممدوحه ، فهو يمدح أسامة بقصيدتين ، الاولى (٢) :

أين مضاء الصارم الباتـــر من لحظات الفاتن الفـــاتر

ويصف فيها أمنه في ظل مؤيد الدولة :

رعت بها ليل الهوى فانجلـــى عن شمس هذا الزمن الناضـــر
وأبعد الاخطار تقريبهـــا مؤيد الدولة من خاطـــرى

والثانيـــة (٣) :

كيف قلتم ما عند عينيه ثـــار وبخديه من دمي آثـــار

---

(١) عيون الانباء : ٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٢
(٢) الخريدة ١ : ١٤٦ ـ ١٤٧
(٣) الخريدة ١ : ١٤٧ ـ ١٤٨

ولم يبق منها غير مقدمتها الغزلية .

وليس هناك ما يقابل هذه العاطفة عند أسامة ، ولعل القيسراني مدحه وهو بعد شاعر مغمور، وقد دون اسامة بخطه بعضا من شعر القيسراني (١) .

٤ - ملك النحاة : الحسن بن ابي الحسن صافي ، ابو نزار النحوى. ولد ببغداد سنة ٤٨٩ وقرأ الفقه واصول الفقه والنحو في بغداد . فتح له الجامع ودرس ثم سافر الى بلاد خراسان وكرمان وغزنة وقدم دمشق ثم خرج منها وعاد اليها واستوطنها الى ان مات بها في شوال سنة ٥٦٨ . له ديوان شعر وكتب في النحو والتصريف(٢) .

ولما قدم الشام هجاه ابن منير والقيسراني والشريف الواسطي . واستخف به ابن الصوفي . فعاد الى الموصل ومدح جمال الدين وجماعة من اعيانها . ولما نبت به الموصل سئل في الرجوع الى الشام ، فقال : لا ارجع الى الشام الا ان يموت ابن الصوفي وابن منير والقيسراني والشريف الواسطي (٣) .

والشعر الذى هجاه به ابن منير لاذع ، ولم يصلنا هجاء القيسراني له، ولعله كان لاذعا ايضا لما سببه من مرارة لملك النحاة حتى انه آلى على نفسه أن لا يدخل الشام وهجاؤه احياء .

٥ - ابو الحسين اخو الحافظ ابن عساكر : الفقيه المحدث صائن الدين هبة الله بن الحسن بن هبة الله. ولد في رجب سنة ٤٨٨ وقدم بغداد سنة ٥٢٠ وقرأ على اسعد الميهني وابن برهان وعاد الى دمشق ودرس بالمقصورة الغربية

---

(١) تذكرة ابن العديم : ورقة ٤٤ وجاء فيها : "قرأت بخط الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ لابي عبد الله القيسراني ...."
(٢) معجم الادباء ٨ : ١٢٢ - ١٢٤
(٣) المصدر السابق : ١٢٧ - ١٢٨

في جامع دمشق وافتى وحدث . توفي في شعبان سنة ٥٦٣ بدمشق [١] .

ويبدو انه كان صديقا للقيسراني يصله بالمال ، وقد زاره في مرضه الاخير في بيته بدمشق . وقد انشده القيسراني قصيدة نونية طويلة ، وكتب اليه بخطه القصيدة [٢] :

أشبا سيوف الهند أم عيناك وجنى [بهيّ] الورد ام خداك

وفيها يصف حسن تلقيه المعتفين وجوده ، وتقصيره هو في مدحه مما اضر به ، ثم استدراكه هذا التقصير :

يلقى المعبس من صروف زمانه بطلاقة المتهلل الضحاك

يتصرف العافون في امواله قبل السؤال تصرف الملاك

امسكت عن مدحيه حتى انني ايقنت ان سيضيرني امساكي

ومدحته مستدركا ولربما عفى على تقصيري استدراكي

---

(١) وفيات الاعيان ٢ : ٤٧٣

(٢) تاريخ دمشق : مجلد ٤٠

بعض العناصر البارزة في شـــخصيته

يصعب علينا ابراز عناصر شخصيته ونحن نفتـــقد جانبين من شـــعره لا نرى لهما أثرا . الجانب الاول هو الرثاء . فليس بين ايدينا قصيدة او مقطعـــة قالها القيسراني في الرثاء مع وفرة اتصالاته بالممدوحين والادباء كما رأينـــا . فهل كان عاجزا عن قول المراثي ؟ ام قالها ولم يصلنا منها شيء ؟ أم كـــان متحجر العاطفة لا يهزه موت ممدوح اغدق عليه ماله وعطفه في حياته ، فانتهـــت صلته به عند مماته ؟ وهذا الافتراض الثالث نستبعد صحته ، اذ اننا نلمـــس عكسه في تدفق عاطفته ، وحنينه الجارف في تلك المقطعات التي قالها بعـــد قفوله من العراق سنة ٥٢٧ هـ — عاطفة شدته بقوة الى اماكن شهد فيهـــا عيشا هانئا لمدة قصيرة ، وفيها من الصدق ما يوحي بان القيسراني شـــديد التعلق بالاشياء اذا ما ارتبطت بحياته بسبب او بآخر .

والجانب الاخر هو الهجاء الذى توحي لنا حياة القيسراني بانه قـــال منه الشيء الكثير ، وليس بين ايدينا منه شيء . واذا نظرنا فيما بين ايدينـــا من شعره ، وفي تطور مراحل حياته ، نستطيع ان نلمس العناصر التالية فـــي شـــخصيته :

١ — لقد لاقى في أول حياته من الاهمال ما ترك في نفسه عقدة " الموهبة المهدورة " ، فان لم يوفه الناس حق قدره من التبجيل والتمكين ، فليس ذلـــك لان فيه عيبا ، بل لنقصهم هم وعدم تبصرهم :

وانما النقص في حظي لنقصهـــم   فما علي اذا ما فاتني عـــار

ولانهم جهال لا يستسيغون ما يسمعون :

غارت حميته مني على حكم ... في الشعر يجرى عليها حكم جهال
ريعوا لها وهي اغمار مخلدة ... كانني زرتهم منها بآجال

فهو يرى نفسه ظاهرة فذة في عصره لم تجد لها الصدى الذى تستحق فيتساءل :

أيضيق الجود عن مثلي يدا ؟ ... بعدما ضاق بامثالي الفضاء

ومن هذا الاحساس ينطلق احساس آخر - يذكرنا بما كان يعتلج في نفس ابي الطيب المتنبي - بان شعره متفوق لا يبارى :

انا من اذا صغت القريض فمن يوازى او يوازن

يطرب له السامعون ، وتهتز له اعطاف الدهر ، فهو فريد بلا مثل :

ابا الفضل كم لي في مساعيك مدحة ... الذ على الافواه من ضرب النحل
ترى القوم فيها بين راو وسامع ... كلا عاشقيها الدهر يكتب او يملي
فريدة لفظ في فريد محاسن ... فتلك بلا مثل وانت بلا مثل

٢ - وهذا الاهمال الذى لقيه في اول حياته ، علمه درسا لن ينساه ولقنه الحكمة :

اذا ما خدمت كبار الملوك ... فأول ما تخدم الحاشيه
فكن جارى الماء يسقي الرياض ... واول ما تشرب الساقيه [1]

ولو نظرنا في قائمة ممدوحيه لرأينا انه طبقها بكل دقة واخلاص ، فهو لم يترك قاضيا او نائبا أو وزيرا في دولة الاتابكة دون ان يمدحه بقصيدة او اكثر ، قصائد في معظمها فاترة لم يقصد بها اكثر من التكسب والتوصل الى "كبار الملوك" وهذا يقودنا الى عنصر ثالث شديد الظهور .

---

(١) البيتان في الخريدة ١ : ١٥٦

٣ ـ فقد غدا القيسراني في الجزء الاخير من حياته ـ وخاصة ايام نور الدين ـ ذلك الشاعر المعبر عن آمال أمة في اجلاء الغاصبين عن اراضيها ، تنطلق القصائد منه قوية صادقة لا زيف فيها ، تسجل النصر تلو النصر وتطالب بالمزيد من الجهاد ، وهو تحول خطير في شخصيته من شاعر متكسب الى صوت جيل باكمله ولم نعد نلمس في شعره أثر "العقد" السابقة التي كان سببها الاهمال والشعور بالضياع .

٤ ـ وهو سريع الانفعال ، يحضر مرة في سماع ويستمع الى مغن حسن الصوت ، فيود لو اعطاه الحاضرون كل ما صانوه في دنياهم :

والله لو انصف الفتيان انفسهم ... اعطوك ما ادخروا منها وما صانوا
ما انت حين تغني في مجالسهم ... الا نسيم الصبا والقوم أغصان [(١)]

ويستثيره هديل حمامة فتدر دموعه وتعاوده ذكرى الفه الذى فقده :

خفضي الصوت يا حمامة مقرى ... هاج شوقي دعاؤك المرفوع
انما تستثير رقة شكواك ... دموعي والوجد حيث الدموع
طربت عند الفها وشجاني ... فقد الفي فأينا المفجوع [(٢)]

٥ ـ وله نظرة في قواعد التعامل مع الناس . فهو على علم بان الحياة لا بد وان تضطر الانسان الى الاتصال بانواع من البشر مختلفة ، ومن اراد سهولة التمازج مع من يعاشرهم فلا بد له من ان يلبس لكل مناسبة لبوسها ، وان يخاطب كلا بما يستحقه ، ولا شيء ـ في نظره ـ يقرب بين القلوب اكثر من مجالس الأنس ، فهي تطلق الانسان على سجيته ، دون التواء او مراءاة ، فيظهر معدنه الحقيقي وحسن مداراته الناس :

اذا دفعت الى قوم تعاشرهم ... فلا تكن ناسيا ما يذكر الناس

---

(١) البيتان في وفيات الاعيان ٤ : ٨٤ ومرآة الجنان ٣ : ٢٨٨ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢

(٢) الابيات في الخريدة ١ : ١٣٦

رتب لكل امرئ ممن تجالســـه نوعا من الخلق ان الخلق اجناس
والق الندامى ولو في كل عاشـرة ان الكياسة من أشراطها الكاس (١)

٦ ـ وهو طموح ، كابد مصاعب الدهر وظل في محاولة دائمة للارتقـــاء بنفسه الى ابعد ما تستطيع ، ولكن حوادث الايام له بالمرصاد ، والخطـوب لا تني عن محاولة حطه وانتقاصه ، ولكنه ابدا روح وثابة تشق طريقها نحو السمو :

الى كم اسوم الدهر غير طباعـه واصدقه عن شيمتي وهو حانــث
واسمو مجدا في العلا وتحطـني خطوب كان الدهر فيهن عابث (٢)

٧ ـ وهذا الطموح وما قام في سبيله من عقبات ـ كأداء في معظمهـا ـ خلف في نفس القيسراني اثرا نفسيا بالغا ، كاد ان يلجأه الى "التقهقـــر" ، وأوجد عنده نوعا من "اللامبالاة" ـ شعور غشى نظرته الى الحياة بغشاء مــن الزهد فيها حتى غدا يحسد الاموات ، واصبح لا يقيم كبير اهتمام لما تأتي بــه الايام من خير وشر ، ولكن هذا الشعور وجد له متنفسا ، رأى فيه القيســراني مهربا من مشكلته ، وهو الترفع عمن لم يولوه من العناية ما يرى نفسه جديرا بــه :

كنت جهلا فيما مضى أحسد الاحياء فأصبحت أغبط الامـــواتا
مذ عرفت الايام لست أبـــالي أى شيء عاصى يدى أم واتـى
فتنزه عمن تصام عــــن صوتـك واسأل من يسمع الاصواتـا (٣)

---

(١) الابيات في الديوان : ٦١
(٢) البيتان في الغيث المسجم ١ : ١٤٣
(٣) الابيات في الديوان : ٦١

٨ — ومن هنا كانت نظرته الى العلم وأهله ، فالعلم يعلي من شأن حامله وهو درع يصد عنه غوائل الزمان ان هو اجاد استعماله ، ولكنه اداة لا يحسن الجاهل استعمالها ، وهذه النظرة عند القيسراني امتداد لنظرته في قواعد التعامل مع الناس — اعني مخاطبة كل بما هو أهل له :

لا تناظر جاهلا أسندك الدهر اليه
انما تهدي اليه ما يعاديك عليه [1]

---

(١) البيتان في الخريدة ١ : ١٣٦

الكتـــاب الثانـــي

شـــعر القيســـراني

أ ـ ما وصلنا من شـــعره

ب ـ المدخل الى دراسة شعره

١ ـ النقد والذوق الادبي في عصره

٢ ـ شخصيته الشعرية بين اشهر معاصريه من الشعراء

جـ ـ دراسة شعره من حيث الموضوع

١ ـ الاتجاه الفـــردى

٢ ـ الاتجاه العـــام

د ـ اهم المظاهر البديعية في شعره

هـ ـ آراء النقاد في شـــعره

و ـ خـــاتمة

ما وصلنا من شعره

يقول ابن عساكر فيه : " شاعر مكثر له ديوان كبير حسن " ، وهذا يدل على ان القيسراني جمع شعره وان هذا الشعر كان غزيرا ولذلك جاء ديوانه كبير الحجم . ثم ظل ديوانه محفوظا عند ابنه خالد الذى بلغت عنايته بشعر ابيه ان كان يحفظ معظم شعره وينشده من الذاكرة[١]. ورأى العماد الاصفهاني هذا الديوان في حجمه الكبير لما اتصل بخدمة نور الدين وتعرف الى خالد ونقل منه بعض القصائد والمقطعات في الخريدة بعد ان التقط جانبا من شعر القيسراني عن طريق الرواية ، واهم الرواة الذين اعتمد عليهم صاحب الخريدة :

١) الفقيه علي الخيمي الواسطي الذى لاقاه العماد بواسط (٥٥٣) وهو ممن اتصل بالقيسراني في مدينة حلب واخذ بعض شعره[٢] .

٢) الفقيه عبد الوهاب الدمشقي ببغداد (٥٥٠)[٣] .

٣) بعض اصدقاء العماد من فقهاء الشام[٤] .

٤) الواعظ الرحبي[٥] .

كما اخذ العماد ايضا بعض قصائده عن طريق النقل من الكتب معتمدا على كتاب لمح الملح لابي المعالي الكتبي وعلى كتاب المذيل للسمعاني .وقد اطلع المؤرخ ابو شامة على ديوان القيسراني في حجمه الكبير ونقل منه عددا وافرا من القصائد في كتاب الروضتين[٦]. واطلع عليه الصفدى بخطه ونقل منه ابياتا متفرقة ، اى ان ديوانه بخطه ظل موجودا حتى القرن الثامن .

---

(١) الخريدة ١ : ١٢٦
(٢) المصدر نفسه ١ : ٩٧
(٣) المصدر نفسه ١ : ٩٩
(٤) المصدر نفسه ١ : ١١٩
(٥) المصدر نفسه ١ : ١٢٠
(٦) انظر الروضتين ١ : ٤٤ وغيرها حيث يقول ابو شامة "قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني" .

ولم يصلنا هذا الديوان الذى وصفه ابن عساكر بكبر الحجم وانما وصلتنا نسخة من ديوان القيسراني في اربع وثمانين ورقة ، وهي في مجموعها تمثل مختارا صنعه القيسراني نفسه ، اذ جاء في آخر النسخة "هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره" [1]. ومما نلحظه في هذا المختار انه خال من مدائحه في تاج الملوك بورى ومجير الدين ابق وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وانه احتوى عراقياته وثغرياته وبعض مدائحه في من دون الحكام . ولا ندرى لمن قدم القيسراني هذا الجزء ، ولكن ادراج الثغريات فيه لا يدل على أنه صنعه في دور مبكر لانه انشأ هذه القصائد عام ٥٤٠ اى قبل وفاته بثماني سنوات -على التقريب- . وعلى هذا فانا ان شئنا ان نتمثل شعر القيسراني فلا بد من ان يكون معتمدنا بالاضافة الى الديوان كتاب الخريدة والروضتين . فهذه الكتب الثلاثة تتكامل معا في امدادنا بشعره وهي أهم المصادر له . وهناك قصائد في معجم الادباء لياقوت وفي غيره من المصادر التي راجعتها -واثبتها في قائمة المراجع- وكلها تكون الصورة التي اخضعتها لهذه الدراسة ، وربما قدرت ان هناك كثيرا من القصائد والمقطعات قد ضاع ايضا . ومن اول الشواهد على ذلك أن قصائده التي كان يناقض بها ابن منير لم تصلنا ، كما ان هناك قصائد لم تصلنا منها الا منتخبات او أبيات قليلة .

---

(١) الديوان : الورقة ٨٤

المدخل الى دراسة شعره

وارى ان خير ما يساعد على دراسة شعر القيسراني في آفاقه البعيدة والقريبة ويضعه في الموضع الصحيح الذى يستحقه ، ان انظر اليه من زاويتين : فأبصر في احداهما مدى صلته بالذوق النقدى العام في عصره ، وابصر في الثانية موضع شخصيته الشعرية بين الشعراء البارزين في ذلك العصر .

١ — وفي تبيان الناحية الاولى استطيع ان اقرر مطمئنا ان الذوق النقدى العام في ذلك العصر كان ما يزال آخذا باسباب الاتجاه النقدى الذى تبلور في عصور سابقة دون تغيير ظاهر . فاصبح عمود الشعر حسبما حدده النقاد السابقون كالمرزوقي هو محك الجودة عامة . ويتضمن هذا المقياس تأكيدا لشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له[1] .

وظلت كذلك قواعد الفصاحة والبلاغة مرعية في الكلمة المفردة والتأليف المركب حسبما كانت من قبل ، كما ظل الاحتكام الى ضروب البديع هو المقياس الصحيح لدى الشاعر والناثر ، وبحسبنا ان ننظر في كتابين يمثلان هذا العصر: اولهما هو سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٤٦٦) ففيه ترتيب لكل الضروب البلاغية السابقة ، وثانيهما كتاب البديع في نقد الشعر لاسامة ابن منقذ وهو كتاب لم يأت بجديد حسب اقرار مؤلفه في المقدمة حيث قال : " هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه فلهم فضيلة الابتداع ولي فضيلة الاتباع والذى وقفت عليه كتاب

---

(١) انظر مقدمة المرزوقي في مجلة المجمع العلمي العربي ص ٨٨ — ٩٣

البديع لابن المعتز وكتاب الحالي للحاتمي وكتاب المحاضرة للحاتمي وكتاب الصناعتين للعسكرى وكتاب اللمع للعجمي وكتاب العمدة لابن رشيق فجمعت من ذلك احسن ابوابه وذكرت منه احسن مثالاته" (١). وهذا يصور لنا فضيلة "الاتباع" التام في استمداد المقاييس النقدية من المتقدمين دون قيام بشيء من التجديد .

ولا يفوتنا ان نلحظ كيف ان اسامة صدر كتابه بالكلام في "التجنيس" وجعله اقساما اربعة : التجنيس المغاير وتجنيس التصحيف وتجنيس التصريف وتجنيس العكس، لان هذا اللون الزخرفي قد اصبح معتمد الصنعة في هذا العصر. فهو صورة المهارة الانشائية لدى ناثر كالعماد وشاعر كالقيسراني . وربما كان هذا هو المقياس المفضل لدى العماد في اختياره للشعر ، فاذا اختار قصيدة قال مثلا : "ومن اخرى مجنسة سلسة للقلوب مختلسة وللعقول مفترسة" (٢). فهو يختارها لجمال ما فيها من تجنيس، او يقول في موضع اخر : "وانشدني له قطعة مجنسة في لطافة الهواء مالكة رق الاهواء" (٣) .

واذا اعتبرنا العماد مقياسا للذوق النقدي في هذا العصر - وهو الذى نقل الينا صورة ذلك العصر بما اختاره لشعرائه - وجدناه احيانا يعبر عن اعجابه بالشعر في كلام لا حدود له وهمه في ذلك ان يسجع كأن يقول : "ومن أبيات في وصف العذار أخلع من خلع العذار وأزهر من الازهار وأنور من النوار واعقر للالباب من العقار وانضر في النواظر من النضار" (٤) ، او كان يقول في مدى استساغته لقصيدة اخرى "سماعها يذكر اليك الجنة ويحدث لك الى حورها الصبوة ويحل لديك من هواك السلوة" (٥). فهذه الاحكام كلها تأثرية لا تحدد شيئا وانما يحاول الناقد فيها ان يصور الاعجاب وحسب .

---

(١) البديع : ٨

(٢) الخريدة ١ : ١٢١

(٣) الخريدة ١ : ٩٨

(٤) الخريدة ١ : ٨٤

(٥) المصدر السابق ذاته .

على ان العماد مفتون بشيء آخر كان الناس في عصره مولعين به وهو ما يقدرونه من اختراع او توليد لمعنى من المعاني . وقد قرأ العماد بيتين لاسامة ابن منقذ في قلع ضرس وهما :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته — يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا — لناظرى افترقنا فرقة الابد

فقال معلقا ، "لو انصفت فهمك ان كنت منتقدا ، فرقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد درره وآلايه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغو ، وأنه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومن الذى اتى في وصف السن المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهل ساواه في هذا النمط سواه ؟ "(١).

وروى العماد ايضا هذه الابيات لاسامة :

يا دهر ما لك لا يصد — ك عن اساءتي العتاب
أمرضت من اهوى ويأ — بى ان امرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الا — مراض لي وله الثواب

ثم شفعها بقوله :
"قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع بديهة ومبتدع فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى طريفة المعنى ، مقصدها سهيل ، وموردها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل"(٢) .

وعلى الرغم من افتتان العماد بالصنعة كان يحب ان يميز المطبوع من المتكلف في الشعر ، ويرى ان الشعر المطبوع — وشعر القيسراني في رأيه يجرى هذا المجرى — قلما تتوفر فيه الابيات المطبوعة ، الا ان القيسراني في رأيه قد خص احيانا بالخاطر العاطر والفكر الحاضر والقريحة الصافية والاداب الوافرة الوافية" فصحت

---

(١) الخريدة ١ : ٥٠٠ (٢) المصدر السابق ١ : ٥٠٣

له بعض المقطعات المطبوعة في داخل الهيكل الصناعي [١] ، ولذلك وصف بعض قصائده بانها مطبوعة مصنوعة .

وظلت غرابة المعنى مرجع الذوق النقدى العام الى مدى طويل بعد وفاة القيسراني ، ويحدثنا نصر الله بن الاثير انه سافر الى الشام سنة ٥٨٧ ودخل مدينة دمشق فوجد جماعة من ادبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له اولها :

"خذا من صبا نجد امانا لقلبه" [٢]

ويزعمون انه من المعاني الغريبة وهو :

أغار اذا آنست في الحي انة   حذارا عليه ان تكون لحبه

فقال لهم ابن الاثير : هذا البيت ماخوذ من شعر ابي الطيب :

لو قلت للدنف المشوق فديته   مما به لاغرته بفدائه

وقول ابي الطيب ارق معنى وان كان قول ابن الخياط ارق لفظا ، قال ابن الاثير : "ثم اني وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد اخذها من شعر المتنبي" [٣] .

ما موقف القيسراني من هذه المقاييس السائدة في عصره ؟ اعتقد انها وجهت كثيرا من جهده الفني — كما سيتضح عند القول في شعره . ولا بد من ان نتذكر ان القيسراني كان شاعرا مثقفا واسع الاطلاع على ضروب من الثقافات كالفقه والمنطق والنجوم ، وأنه درس كثيرا من الدواوين الشعرية السابقة وحفظ قسطا وافرا من الشعر ، وانه كان يرى الشعر "مرآة عقل" لا مرآة وجدان ، وذلك حيث يقول [٤] :

والشعر مرآة عقل يستدل بها   على موازنة الالباب والفطن
فلا تغرك اشباح معطلة   فانما الشعر مثل الروح في البدن

---

(١) انظر الخريدة ١ : ٩٨
(٢) انظر ديوان ابن الخياط : ١٧٠—١٧٧ ، والشطر الثاني "فقد كاد رياها يطير بلبه"
(٣) المثل السائر : ٤٦٩   (٤) ورقات ملحقة بمخطوطة المنظوم والمنثور

ومن كان هذا شأنه كانت عمدته الى جانب التفنن في الشكل ، ميله الى توليد المعاني وابتكارها على نحو ذهني ؛ ولذلك كان يعجبه من شعر نفسه ما جرى في هذا المضمار. وقد رووا انه كان شديد الاعجاب ببيت له هو[1] :

وأهوى الذي أهوى له البدر ساجدا   ألست ترى في وجهه اثر الترب

وهو معنى مولد قائم على المبالغة وحسن التعليل ، وهو بيت ألم فيه بقول المعري[2] :

وما كلفة البدر المنير قديمة   ولكنها في وجهه اثر اللطم

وقد لازم القيسراني استاذه ابن الخياط وروى ديوانه ولا بد من ان نتلمس شيئا من أثر هذا الاستاذ فيه وفي ذوقه عامة. وانا نلمح اثر اتباعه لهذا الاستاذ في دور مبكر من حياته ؛ فقصيدته الضادية التي مطلعها :

لو كان سرك للوشاة معرضا   لم اغض من دمعي على جمر الغضا

انما تجري في سياق قصيدة استاذه ومطلعها :

شرفا لمجدك بانيا ومقوضا   ولسعد جدك ناهضا او منهضا

ومن الاتباع اللفظي فيها قوله :

ما جاش في صدر الملطف صدره   الا ظننت الجيش قد ملأ الفضا

وهو يذكر بقول ابن الخياط :

لم تبد الا لحظة او لفظة   حتى فضضت الجيش قد ملأ الفضا

وكذلك قصيدته :

ما استأنف القلب من اشواقه اربا   الا استفزته آيات الهوى طربا

---

(١) وفيات الاعيان ٤ : ٨٢ ومرآة الجنان ٣ : ٢٨٨

(٢) انظر الخريدة ١ : ٩٧

انما هي معارضة لقصيدة ابن الخياط التي مطلعها :

أعطى الشباب من الآراب ما طلبا   وراح يختال في ثوبي هوى وصبا

ونحس بلمحة عابرة من الشكوى عنده تذكرنا ايضا بمذهب استاذه الذى كان شديد التذمر من الناس والزمان ، فمن ذلك قول القيسراني :

نفرت لهذا الدهر عن غير شيمتي   ومن كان مأخوذا بخلق تخلقا

واصبحت لا ارضى القوافي لمنطقي   على ان لي فيها لسانا ومنطقا

او قوله :

ما لي وللايام تخطب هدنتي   حتى كأن صروفها أكفاء

لا تستطيع يد تصد شكيمتي   عن شيمتي فلتجهد الاعداء

ولكن هذه الاتباعية لم تدم طويلا بل يبدو ان القيسراني حين استقل بالشعر اصبح يحاول ان يبتعد عن طريقة استاذه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ومن ضروب هذا التباعد ـ الشكلي ـ انه اصبح يتحاشى معارضة قصائد ابن الخياط ، كما ابتعد عن شكوى الناس والزمان . وان ظل يعتمد بعض المعاني التي وردت في شعر استاذه . وكان ابن الخياط قليل الاهتمام بالصنعة اللفظية من جناس وطباق فاقبل القيسراني على هذين اللونين من الزخرف واكثر من استغلالهما في شعره طلبا للتفرد .

وبتقدم الايام لم يبق من تأثير ابن الخياط في شعره الا تلك المطالع الحاسمة التي لم يتخل عنها القيسراني حتى في اواخر ما نظم من شعره . وذلك مثل قوله : "هو السيف لا يغنيك الا جلاده" وقوله "هي جنة الماوى فهل من خاطب" وهي مطالع تشبه قول ابن الخياط "هي الديار فعج في رسمها العارى" وقوله : "هو الرسم لو اغنى الوقوف على الرسم" .

وقد ميز القيسراني بالثناء احدى قصائد شيخه ابن الخياط فعدها من

احسن شعره ومن اشف كلامه واعذبه وارقه وتلك هي التي مطلعها[1] :

عسى باخل بلقاء يجـــــود عسى ما مضى من تدان يعـــود

والقصيدة (وعدتها ٥٢ بيتا) جارية مجرى سائر شعر ابن الخياط في قيامها على افتتاحية غزلية طويلة (٢٢ بيتا) يتلوها مدح للممدوح العميد ابي يعلى حمزة بن اسد (٥١٧) . وعندي ان هذه القصيدة تمثل حلقة الوصل بين شعر ابن الخياط وشعر القيسراني ، تميزها الرقة وفيها بعض المحاولات البديعية كالجناس والطباق :

أيا كمدي الليلي انقضـــاء أيا كبدي ألناري خمـــود

.....

فانقع من ورده ذا الصـــدى وانفع من برده ذا الوقـــود

وفيها شيء معاكس لطريقة القيسراني الانسيابية ، فيها هذا البرم الشديد الذي تمثله كثرة الاستفهامات الحائرة :

أأحمل يا هجر جور البعـــاد وجورك ؟ اني اذا للجليـــد

أيا كمدي أالليلي انقضـــاء ؟ أيا كبدي ألناري خمـــود ؟

مرضت فهل من شفاء يصـــاب ؟ وهيهات والداء طرف وجيـــد

.....

خليلي ان خان خـــل الا حليف علو هجره او عقيـــد ؟

وهل ان وفى لي بعهد الوصال أينقص هذا الجوى ام يزيـــد ؟

ويا قلب ان اخلق الوجد منـــك فاني لي اليوم قلب جديـــد ؟

الى م تحوم حيام العطـــاش اذا مورد عنّ عز الـــورود

.....

وهكذا تسير في هذا اللون من التردد كأنما تصور "غصة احتجاج" في حلـــق صاحبها ، وهو ما لا تجده كثيرا في شعر القيسراني ، على ان الجانب المنطلـــق

---

(١) ديوان ابن الخياط : ٣٢٥

منها شبيه بشعر القيسراني ، فجاءت معجبة له ـ فيما اظن ـ لسببين : لان فيها شيئا يكمل طريقته ولان فيها شيئا يشابه طريقته .

٢ ـ واما الناحية الثانية ، واعني بها موضع شخصيته الشعرية بين الشعراء البارزين في عصره ، فيكفي لتوضيحها ان نضعه في نطاق يضم ابن الخياط وأسامة ابن منقذ وابن منير الطرابلسي والعرقلة الدمشقي .

فاما ابن الخياط فهو شيخه واسامة احد ممدوحيه وابن منير معاصره ومنافسه والعرقلة تأخر عنه ولحق بعصر صلاح الدين . وكل هؤلاء الشعراء يجتمعون على ان القصيدة مبنى طويل ، وان الطول فيها ـ وخاصة في شعر المدح ـ مما يميز الشاعر ويوشح شعره بالقبول . ثم ينفردون في المذهب العام .

فأما ابن الخياط فان ددنه الشكوى من الزمان وتقلب الحدثان ، وهو يدور على هذا المحور حتى يلون بمعاني الشكوى نظرته الى الحياة والناس . فهو متألم متشائم منقبض لالحاح الحرمان ـ وبخاصة في اول عهده ـ ونموذج ذلك كله قوله[1] :

تحراني الزمان بكل خطب وعاندني القضاء بغير ذنب

كأن الدهر يحزنه سروري او الايام يظمئهن شربي

أيا زمن اللئام الام حملا علي وبعض ما حملت حسبي

أما يحظى الكرام لديك يوما فاركب فيه عيشا غير صعب

اعدما واغترابا واكتئابا لقد اغريت بي يا دهر نحبي

ومهما نقل في هذا الاتجاه فان فلسفة ابن الخياط كانت منه تنبع واليه تحور .

واما اسامة فانه سليل اسرة عظيمة النفوذ ، وهو بطل محارب ولذلك فان جانبا من شعره حديث عن تجاربه الخاصة ، فاذا تحدث عن المعارك والانتصارات تحدث عنها بلسان الفخر ، وهو على نزاع مع الاقارب ، فنظرته الى الاغتراب عنهم والحزن

---

(١) ديوان ابن الخياط : ١٣٠

عليهم بعد ان فقدهم تمثل صراعا عميقا يضع صاحبه بين كبرياء الغضب وندم النادم . وبقدر تفوقه في البطولة الحربية تجد شعره في الغزل كله ضربا من التذلل الضارع والتظلم ، فهو بطل المعركة واسير الحب المعذب المظلوم وقد ادركته الشيخوخة وبلغ من العمرعتيا فشهد في الحياة تجربة التخير العميق بين القوة والضعف ، بين الانس بمن عرف من لدات والاسى على من تولوا قبله واحدا اثر واحد . ولذلك كان شعر أسامة ممثلا لهذه النفسية العامة من جميع نواحيها .

فأسامة يشبه ابن الخياط في أنه يحب الابتعاد عن زخرف اللفظ ، مثله في انه يستمد ممن تقدمه من الشعراء فيغرق في ابراز المعاني وتوليدها ويعارض ويقتبس كثيرا .

وأما العرقلة ابو الندى حسان بن نمير الكلبي فان له شخصية النديم وكان لطيف النادرة مستطرف الهجاء[1]. وعلى ان له مدائح طويلة فان اللون المميز له هو المقطعات الحادة التي يذهب فيها مذهب النادرة الساخرة او الهجاء المقذع ، وتحت هذا اللون نظرة قريبة الشبه بنظرة ابن الخياط في النقمة والتشاؤم ومن ذلك قوله[2] :

يقولون لم ارخصت شعرك في الورى	فقلت لهم اذ مات اهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وانه	كثير اذا استخلصته من بهائم

وعنوان اهاجيه المضحكة قوله في ملك النحاة وكان يذكر مصر[3] :

قد جن شيخي ابو نزار	يذكر مصر واين مصر
والله لو حلها لقالوا	قفاه يا زيد فهو عمرو

واما ابن منير فقد شهد له النقاد انه كان والقيسراني فرسي رهان ، عاشا في بيئة واحدة وحاما حول ممدوحين بأعيانهم ، وتناقضا في الاهاجي وتخالفا

---

(١) الخريدة ١ : ١٧٨ (٢) المصدر نفسه ١ : ١٨٢

(٣) المصدر نفسه ١ : ٢٠٨

بين التشيع واتباع السنة ، الا ان أسامة بن منقذ اتهم ابن منير بانه "كان مغوارا على القصائد يأخذها ويعول في الزيف عنها على ذمه للناقد او للجاهد" (١).
وفي غنائياته رقة شديدة مثل قصيدته التي يقول فيها (٢) :

اين مني الصبرعن وجهك أيـن   بين قلبي وسـلوّى عنك بين
واهن العزم اذا اسـتنجدتـه   فترته فـترات المقلتين

وهو يؤثر الاوزان القصيرة اكثر من القيسراني ويربو عليه في طلب الجناس .

وعلى هذا فان شخصية القيسراني الشعرية بين هؤلاء الشعراء لا تتمتع بنقمة ابن الخياط ولا بتجربة اسامة ولا بسخرية العرقلة وانما هي قريبة الشبه بشخصية ابن منير الشعرية من حيث المظهر العام في قصائد المدح ، ولذلك لم تكن له فلسفة خاصة دقيقة في شعره ، وقد شارك ابن منير في موضوع المدح وفي الغزل بالغلمان ووقف ندا له في الهجاء وتفرد عنه في ناحيتي مقطعات الحنين ووصف البيئة المسيحية بانطاكية . واذا استثنينا بعض العبث الذى فرضته روح العصر في التغزل بالغلمان كانت شخصية القيسراني شخصية هادئة مستوية لا تعقد فيها ، شخصية الشاعر "المحترف" الذى يريد لشعره حاميا يكفل له العيش ، فغزله ذو نسق جميل ولكنه ضحضاح في جملته ، ومدائحه ايضا ذات نسق جميع لكنها — في غير موضوعات الجهاد — تشبه الخط المستقيم فليس فيها حركة قوية ، وانما هي قائمة على الاسترسال والعذوبة الموسيقية .

---

(١) الخريدة ١ : ٧٧
(٢) المصدر نفسه ١ : ٨٥

دراسة شعره من حيث الموضوع

قد تقدمت الاشارة الى ان شعر القيسراني الذى وصلنا خلا من الهجاء والرثاء ومن كثير من شعر الصفات التي اشتهر بها عصره ، وهو لذلك يجرى في حدود ضيقة بالمعنى الموضوعي ويكاد ينحصر ـ الا قليلا ـ في اتجاهين :

أ ـ اتجاه فردى يصور تذوقه للجمال وأنواع الحنين الذاتي وبعض الوصف والحكمة .

ب ـ اتجاه عام يمثل وقفته في المعارك الحربية والدعوة الى الجهاد وما يلحق بهذا من مدائح .

وسأحاول ان اتحدث في هذين الاتجاهين بشيء من التفصيل .

١ ـ الاتجاه الفردى :

يشمل هذا الجانب مقطعات قالها في الحنين حين ذهب الى العراق واقام هنالك بعض الوقت ، وقد تمت هذه الرحلة عام ٥٢٧ . فهذه المقطعات من أوائل شعره ، وتبلغ عشرا في العدد وتتضمن ٤٨ بيتا اى انها في مجموعها لا تزيد عن قصيدة واحدة طويلة ، ولكن قيمتها الفنية اكثر من ذلك بكثير. اذ انها تجردت عن طلب المال ولم يثرها الامل في كرم الممدوح فهي في دوافعها مستوحاة من معاني الاغتراب والشوق ، ولكن الالحاح على وضعها ـ هكذا ـ في شكل مقطعات مما يستوقف النظر. ويخيل الى ان الشاعر كان يحاول كلما ابتعد عن مواطن ممدوحيه وخلا الى نفسه ان "يؤلف" في موضوع شيئا يشبه تصويره للرحلة ، فبدلا من ان يكتب وصفا نثريا لرحلته ، جعل يسجل خاطرة من خواطر الشوق كلما انتقل من مكان الى آخر ، فاذا كان بالانبار قال :

أقمت بالانبار ذا لـوعة | مقسومة بين حبيبين
أشتاق أهلي بدمشق وفي | بغداد حظ القلب والعين

واذا مر بوادى ابلى قال :

أقول لخيلي عند أبلى ومــاوءه | يبارى دموعي والرفاق تسير
تجاوزن عن ماء الغدير وشربه | فبين جفوني للركاب غدير

واذا بلغ حسينة كتب مقطوعة يقول فيها :

ذكرتك في حسينة والروابي | ملفعة المناكب بالرياض
ورعت الليل مخضر المجاني | على الغدران مترعة الحياض
وقد سئمت من السير المطايا | ومل قتودها حنق العضاض
وضاقت ساحة الاخلاق حتى | نبا الخلق الكريم عن التغاضي
وعندك انني مع ما الاقي | نسيتك لا وعينيك المراض

وهكذا هو حاله اذا مر بجو او بادية السماوة او ديار بني عدى او غيرها من المواطن . وهو في هذه القصائد ينبعث بحنين تلقائي ليصور خفقات من الشوق بين الحين والحين، ولا يعنى بالتصوير للمناظر التي يراها الا في القطعة التي تحدث فيها عن حسينة فقد وصف المناظر الطبيعية وصفا جميلا حين قال ان الروابي "ملفعة المناكب بالرياض" وحين راى الليل قد اخضرت مجانيه وهو مطل على الغدران وقد افعمت حياضها بالماء .

ومما يقوى الظن بان القيسراني انما كان "يوءلف" وصفا لرحلته عودته الى شيء شبيه بهذا الموضوع حين اتيح له السفر الى انطاكية، فقد نجا مرة اخرى من اسر المناسبات التي كان يرتبط بها ، واخذ يصف المواضع التي استحسنها في مقطعات اخرى سميت "الثغريات" وهي وصف رحلة الح فيها على تسجيل تجاربه وخواطره الجديدة ، وبين الرحلتين ما لا يقل عن ثلاثة

عشر عاما ، الا ان الثانية تمتاز عن الاولى بحدة التجربة وطرافتها ، ففيها وقع القيسراني في بيئة مسيحية بعضها محلي وبعضها صليبي ، ورأى الجمال سافرا :

سوافر كلما شـــعرت بنا ... برقعهن الحيـــاء والخفر
من كل وجه كان صورتـــه ... بدر ولكن ليله شـــعر

وشاهد الفرنجات ذوات العيون الزرق :

وان تك في عينها زرقـــة ... فان ســنان القنا ازرق

وكان غزله احيانا قائما على العفة واحيانا على الفتك حسبما تفرضه طبيعة المناسبة ، فهذه القطعة استحسان للجمال العفيف :

كم بالكنائس من مبتـــلة ... مثل المهاة يزينها الخفـــر
من كل ساجدة لصورتهـــا ... لو أنصفت سجدت لها الصور
قديسة في حبل عاتقهـــا ... طول وفي زنارها قصـــر
غرس الحياء بصحن وجنتهـا ... وردا سقى اغصانه النظـــر
وتكلمت عنها الجفون فلـــو ... حاورتها لاجابك الحـــور
وجلت مدارعها غدائرهـــا ... فاراك ضعفي ليلة قمـــر

وهذه القطعة على الضد من ذلك صورة للفتك والتهتك :

يختص عيسى بالصلاة واصطفي ... لوطا وتذكرنا المدامة شيـــثا
والبدر مبتسم كوجه خريـــدة ... قرنت به فرعا عليه اثيـــثا

ويطيل القيسراني الوقوف لدى الكنائس ككنيسة السيدة وهي لنصارى انطاكية خاصة دون الافرنج وبربارة وهي للافرنج خاصة ويتأمل اشمونيث وهي للغربية والنصارى معا ، ويصف مناظرها وروعة مبانيها ولكنه دائما يحور من الوصف الى موضوعه المحبب اى استرواحه للجمال المؤنث والمذكر وكلفه به ، وهو دائما مأخوذ مسحور او منفعل بما يراه من الوان الجمال البشرى باكثر مما تعجبه روعة المناظر العامة كالمباني وشئون الحضارة وغيرها ، كانما المرأة الفرنجية او الغلام — هما ابرز مظهر استهواه

وملك عليه اعجابه . ولهذا تعليله ، فقد قدمت القول عند الحديث عن الحياة الاجتماعية عن مدى التحفظ الذى كان يحيط بالمرأة المسلمة وما يقابله من تحرر وسفور عند رصيفتها الفرنجية . وكانما وجد الشاعر هذا الجمال السافر فبهره ورأى انه منطلق في رحابه ، وكان تصوير فتنة الجمال في نفسه تأكيدا لوجوده الذاتي لان الرجل يومئذ كان قد شارف الستين ، فأحس في محراب ذلك الجمال انه يبعث الى الحياة العارمة من جديد حتى لقد زعم انه اجترح اللذة وانه عاش تجربة حقيقية ،اعطى القياد لشهواته احيانا . وقد اشرت من قبل كيف تركت هذه التجربة اثرها في شعره اذ جعلته يتنفس في جو مسيحي فيه صلوات واعياد خاصة ومصطلحات حضارية ودينية فهو يردد ذكر الاثار ويشبه وجه ماريا بقنديل الهيكل ويستعبر لوجهها وصفا من معجزة المسيح :

لها وجه مسيحي ترى الميت به حيا

ويتحدث عن القديسة والقونة والبرنس ومرجرجس والمذبح والقربان والتصليب :

فيا حسن ذاك الوجه اذ ريع روعة فعوذه منها بتصليبة اليد

وتعد هذه المقطعات الثغرية تتمة لذلك الشعر الذى اثارته الاديرة في تاريخنا الادبي ، وبها وبالمقطعات التي قالها في الحنين استطاع القيسراني ان يثبت اتجاها متفردا بين معاصريه من الشعراء ، ومن هذه المقطعات جميعا نقدر كيف كانت الرحلة ملهما فنيا للقيسراني حتى ليتمنى قارئ شعره هذا انه قام برحلات اخرى ولم يرتبط نفسه على ابواب الامراء مادحا .

اما من الناحية التاريخية فان القصائد الثغريات صورة لهذا التلاقي الذى اوجدته الحروب الصليبية وشاهد على بعض انواع التأثير المتبادل . ومما يعجب فيها اقدام القيسراني على هذا الموضوع من الناحية الفنية دون تحرج .

ومن الانقياد الى طبيعة العصر نجد القيسراني في هذا اللون الفردى من الشعر قد صنع اشعارا في وصف العذار والتغزل بالغلمان فله في العذار

عدة مقطعات منها قـوله :

يا مطلعا بصدوره في لمـتي ... ما غاب تحت عذاره من خـده
لك عارض القى علي بياضـه ... وأغار من شعرى على مسـوده
واظن خدك مذ تخوف نهـبه ... ضرب السياج على حديقة ورده

ومن غلمانياته قوله في غلام يهودى صيرفـي :

في بني الاسـباط ظـبي ... مالك رق الاسـود
يأسر النـاس بقـد ... وبخـد وبجيـد
تنبت الابصار فـي وجنـته ورد الخـدود
ملق الوعـد متى طـالبـه اللحـظ بجـود

وكان هذا اللون من الشعر عند شاعر كالقيسراني اختبارا لقدرته على القول فـي الموضوعات الشائعة عند معاصريه يومئذ .

ويلحق بهذا النوع احتفاله بوصف بعض الشئون المادية في بيئته ، كقولـه على لسان سـرج :

حملت الجياد فاكرمـني ... ورحت وقد حملتني الجيـاد
فلم لا اتيه على العالمـين ... وفوقي جواد وتحتي جـواد

اما وصف الطبيعة ووصف الخمر فانهما لا يمثلان فنين مستقلين في شـعره وانما يجيئان عرضا . وهو قليل الاهتمام بوصف الطبيعة ، ومن وصفه للخمر ومجلس الشرب قـوله :

ترى الابريق يحمله اخـوه ... كلا الظبيين يلثمه ارتشـافا
يظل كمطرق في القوم يبكـي ... دما او ناكسا يشـكو الرعافـا

وله مطلع قصيدة في الخمر :

أرأيت ما فعلت بنا الصهبـاء ... من حيث تسبي العقل وهو سـباء

جارت على الاعطاف حين جرت لها ... جرى النسيم غصونه الندماء
بكرعلى قرع المزاج تبرجت ... في الكأس فهي قريحة عذراء
نار يزيد الماء في اتقادها ... أرأيت نارا يزدهيها الماء

وليس في هذه الصفات سوى ترديد المعاني المألوفة في شعر الخمر لدى المشهورين في هذا الفن من الشعراء .

وكان بعض الاقدمين يستحسنون له وصفه لنهر قويق وقلة ما فيه من ماء :

رأيت نهر قويق ... فساءني ما رأيت
فلو ظمئت وأسقيت ماءه ما رويت
ولو بكيت عليه ... بقدره ما اشتفيت

وقد نظم القيسراني في اغراض ثانوية كالشيب والحكمة والتهاني الخ ...

يقول في وصف الشيب :

يا هند من لاخي غرام ما جرى ... برق الثغور بطرفه الاجرى
ابكته شيبته وهل من عارض ... شمت البوارق فيه الا امطرا
لا تنكرى وضحا لبست قتيره ... ركض الزمان اثار هذا العثيرا

وله فيه :

اما الشباب فطيف زارني ومضى ... لما تبلج صبح الشيب معترضا
ما كان ابيض وجه الوصل حين دجا ... وما اشد ظلام الهجر حين اضا
وما وجدت الصبا في طول صحبته ... الا كما لبس الجفن الكرى ونضا
فالآن صح شيب الرأس عن عذل ... منه ولم يزوعنك النصح من محضا
فان تبت سحب الاجفان هامية ... فعن سنا بارق في عارض ومضا

واوصافه في الشيب لا تخرج عن الاوصاف المعروفة المألوفة : فهو غبار الزمن ، وبرق يلمع في العارض .

وله مقطعات حكمية عملية ساذجة تسجل خواطر الشاعر وآراءه في الحياة والناس :

اذا ما خدمت كبار الملو ك فأول ما تخدم الحاشية
فكن جارى الماء يسقي الريا ض فأول ما تشرب الساقيه

. . . . .

لا تناظر جاهلا اسـ ندك الدهر اليه
انما تهدى اليه ما يعاد يك عليه

. . . . .

وله من قصيدة في ختان :(١)

ونجل تدرك الابصار منه سنا قمر بتاج المجد حال
حبته سنة الاسلام طهرا تكفل غبرة الماء الزلال
فيا لك من دم يجرى سرورا وكلم نقصه سمة الكمال
وذى الم يلذ به وجرح يكون قصاصه جذل الرجال
واى جناية ترضى المساعي بها ويثاب جانيها بمال

٢ — الاتجاه العام :

لو قسنا كل مقطعات القيسراني في الاتجاه الاول لما كانت الا جزءا يسيرا في جانب شعره في هذا الاتجاه الثاني . فقد عددت له في الاتجاه العام ستا وسبعين قصيدة في المدح وذكر الحروب والجهاد . وبعضها وصلنا كاملا وبعضها لم يصل منه الا مقدمته الغزلية او قطعة من المدح ، وبعضها يزيد على الخمسين بيتا . وقد جاءت قصائده هذه في مرحلتين او قل انها انقسمت في نوعين ، قصيدة المدح في زمن السلم وقصيدة المدح في حال الحرب ووصف الجهاد .

---

(١) الخريدة ١ : ١٥٢

وبين النوعين فروق هامة في الشكل مثلما ان الموضوع نفسه يقيم بينهما فرقا واضحا ٠

فقصيدة المدح العادية ـ ظلت تحتفظ بالمقدمة الغزلية الطويلة ، اما قصائده التي قيلت في اثر المعارك فانها تخلصت من المقدمة ـ كما اشرت في غير هذا المكان ٠

ولو اخذنا مدحة من أوائل شعره كقصيدته :

خاطر بقلبك اما صبوة الغالي　　فيما احب واما سلوة السالي

لوجدنا مقدمتها الغزلية ١٧ بيتا ، وآخر قصيدة مدحية قالها في مجير الدين سنة ٥٤٨ تبلغ مقدمتها الغزلية ١٧ بيتا كذلك ، وهذا يعني انه لم يتطور في الاستغناء عن المقدمة الا بحسب الموضوع والمناسبة ٠

ويتابه النسق الذى يتبعه في المدحة العادية في كل مرة فهو يرسمه على النحو الآتي :

١ ـ مقدمة غزلية طويلة ،
٢ ـ التخلص المتقن من الغزل الى المدح ،
٣ ـ توجيه المدح مناسبا لشخص الممدوح ومنزلته الاجتماعية ،
٤ ـ الخاتمة تقوم على لفت نظر الممدوح الى قيمة القصيدة وجمالها (فخر ذاتي بالشعر) ٠
٥ ـ ويتخلل الغزل والمدح عنصران هامان :
أ ـ جمال الموسيقى القائم على المطابقة والتجنيس، وهي في الغالب موسيقى ناعمة مستوية ٠
ب ـ محاولة الابتكار عن طريق التلاعب وتداعي الالفاظ ٠

ولنأخذ امثلة نطبق عليها هذه الخطوات :

١ ـ عن خاطرى نبأ الخيال الخاطر　　فاعجب لزورة واصل من هاجر

تشمل هذه المقدمة الغزلية ١٦ بيتا (والقصيدة كلها ٤٥ بيتا)

٢ ـ يحسن التخلص منها الى المدح بقوله :

ما زلت ارقب كل نجم طـــالع	حتى نظرت الى البهي الـــزاهر
فرأيت نجم الدين في افق العلـى	ابقى على وضح الصباح الناثـــر

٣ ـ الممدوح في هذه القصيدة قاض فقيه ولذلك يوجه اليه المدح ممزوجـــا بمصطلحات اهل الحديث والفقه والقضاء :

حذفت اسانيد الرواة لمجـــده	جملا على متن الحديث السـائر
فصوادق الاحاد من اخبـــاره	نسخت وجوب العلم بالمتواتـــر
أقضى القضاة اذا تغلغل فكـــره	في شبهة فالحكم حكم الظاهـــر
ما زال يوضح امر كل خفيـــة	حتى قضى بين القنا المتشـــاجر

٤ ـ لفت نظره الى قيمة قصيدته بقوله :

جاءتك مالكة القلوب كأنمـــا	في ناظرى زمن الشباب الناضـــر
حاكت بواكير الخريف وانمـــا	حاكت به حلل الربيع الباكـــر
فتمل منها غرة زهريـــــة	طارت بشائرها بأيمن طائـــــر

٥ ـ ومن الابيات التي اوردتها هنا يتضح لون الموسيقى التي يستعملها كما يتضح تشقيقه للمعاني الجزئية في داخل القصيدة .

وهذا مثل آخـــر :

١ ـ رنا وكأن البابلي المصفـــقا	ترقرق في جفنيه صرفا معتـــقا

(المقدمة الغزلية ١٩ بيتا من قصيدة عدد ابياتها ٤٥) .

٢ ـ التخلص المبني على التجويد :

وصنت بنات الفكر عن غير أهلهـــا	ومن ولي الحسناء صان وأشـــفقا
ومنيتها كفوءا تليق بمجـــده	فكانت بآلاء ابن احمد أليـــقا

٣ — الممدوح قيم على بيت المال فأهم معنى يدور حوله المدح هو قدرته على ضبط الاموال والامانة ٠

٤ — ختم قصيدته بقوله :

فدونكها من مطلع الشعر مبسما ... ترى معرقا في نسبة الفضل مغرقا

معاني من لم يورد السمع ماءها ... تخمر منها في سراب ترقرقا

٥ — هي اضعف حظا من سابقتها في تشقيق المعاني وفي النغمة الموسيقية ٠ فان هذا اللون من التلاعب الشكلي قد يصح له على نحو جميل جذاب مثل قوله في قصيدة اخرى وبناها على حلاوة الجرس الموسيقي والتلاعب اللفظي :

ان شئتم علم حالي بعد فرقتكم ... فانصتوا للحمام العاطل الحالي

خذوا حديث غرامي عن مطوقة ... تتلو ضلالي في فرع من الضال

وقد كان هذا التوليد للمعاني الجزئية في داخل القصيدة من الاشياء التي تعجب معاصريه ولذلك وقفوا باعجاب امام قوله :

هذا الذى سلب العشاق نومهم ... اما ترى عينه ملأى من الوسن

وقوله :

وما زال عوادى يقولون من به ... واكتمهم حتى سألتهم من بي

فصرت اذا ما هزني الشوق نحوهم ... احلت عذولي في الغرام على صحبي

وليس في قصائد المدح عند القيسراني وصف لرحلته الى الممدوح او لمصاعب السفر ، لانه يقيم مع اكثر من مدحهم في بلد واحد او قريبا منهم ، الا في قصيدة واحدة ، ولذلك فهو لا يجيد هذا النوع التقليدى الذى جرت عليه القصائد في العصور السابقة ٠ وفي هذه القصيدة التي يصف فيها رحلته نسمعه يقول :

ونهج كنهج النمل في غلس الدجى ... سلكت وغمدى قرية من قرى النمل

سنا مرهف يقضي لدعوى مضائـه يبين المحامي عنه او شاهد الفل
على سابح يطوى المدى بسنابك لمستها فوق الصفا طاعة الرمل
سفيه الخطا حتى اذا جثم القطا فلى عن افاحيص القطا لمم السبل
كان القوافي راهنته بأنها تباريه او تتلو المقام على الفعل

اما جهاديات القيسراني فقد اتخذت لها وجهة اخرى ضاع منها الشكل التقليدى السابق ، فاختفت المقدمة الغزلية او تضاءل شأنها كثيرا ولم يعد من ثمة حاجة الى تجويد التخلص واصبح الشاعر يهجم على موضوعه دون احتفال وتحفز. كانت المقدمة الغزلية ترددا او تهيبا في الدخول الى الموضوع المباشر ، فاصبح هذا التردد في شعاب الجناس امرا غير ضروري لان المقام اضيق من ان يتسع لهذا التفنن اللفظي في شكوى مفتعلة ، ولذلك اصبحت المطالع مثل قوله :

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

ومثل :

تفي بضمانها البيض الحداد وتقضي دينها السمر الصعاد

ومثل :

دعا ما ادعى من غره النهي والامر فما الملك الا ما حباك به الامر

ومن الطبيعي ان تتغير النغمة الموسيقية وان تميل الى العنف ، ولكن شيئا واحدا لم يتغير هو شغف القيسراني بالتجنيس .

وقد بدأ هذا النهج قبل ان يتصل بعماد الدين زنكي ، ومن أوائل قصائده في هذا الباب قصيدته التي هنأ فيها تاج الملوك بورى بانتصاره على الفرنج ، وكانت القصيدة في مجموعها وصفا تفصيليا للمعركة :

واقبلت خيلنا تردى بخيلهم مجنونة وعلى ارماحها القمم
وادبر الملك الطاغي يزعزعه حر الاسنة وهو البارد الشبم

ثم كيف ارتحل الافرنج مخلفين وراءهم اثقالهم :

فغادروا اكثر القربان وانجفلـــوا   وخلفوا اكبر الصلبان وانهزمــوا

وفي هذه القصيدة يظهر تأثر القيسراني لقصيدة المتنبي فهو يقول :

وقفت في الجيش والاعلام خافــقة   بالنصر كل قناة فوقها علــــم

يحوطك الله صونا عن عيونهـــــم   والله يعصم من بالله يعتصـــم

صاب الغمام عليهم والسهام معـــا   فما دروا ايما الهطالة الديـم

وهذا يذكر بقول المتنبي "وقفت وما في الموت شك لواقف"، وقوله في القصيـــدة نفســـها :

هل الحدث الحمراء تعرف لونهـــا   وتعلم اي الساقيين الغمائـم

ولا ريب في ان القيسراني واصحابه في الحروب الصليبية كانوا في وصف المعـارك يستندون الى رصيد ضخم يمثله المتنبي وابو تمام ، غير ان الاعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين وابنه نور الدين كانت تجعل مجال القول ذا ســـعة ، واصبح الشاعر يجد المادة الصادقة بعد ان كان يتكىء على مهارته اللفظيـــة في اختلاق صفات للممدوح . وتمثل قصائد القيسراني كما اشرت من قبـــل سجلا للاعمال البطولية كما انها تمثل كيف خرج الشاعر من الدائرة الضيقة الـى الدائرة الواسعة ، واصبح شاعر امة بعد ان كان شاعرا فرديا مستجديا .

ومن اجزل قصائد القيسراني "الجهادية" واكثرها قوة ـ واطولهـــا ايضا ـ ، قصيدته التي قالها بعد فتح انب وقتل البرنس مقدم الفرنج واســر البرنس صاحب انطاكية ـ وهو من اعظم فتوح نور الدين .

ويظهر فيها تأثره واضحا بقصيدة ابي تمام في المعتصم بعد فتح عمورية[1]. فكلاهما تعالجان موضوعا واحدا هو جهاد المسلمين ضد اعداء لهم ، هم الـروم

(١) انظر قصيدة ابي تمام في ديوانه ، المجلد الاول : ٤٥ ـ ٧٩

في قصدة ابي تمام والفرنج في قصيدة القيسراني • والقصيدتان بائيتان من بحـــر واحد هو البســـيط •

ومطلع قصيدة ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتـــب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريـــب

ويلم القيسراني بمطلع قصيدة ابي تمام في مطلع قصيدته :

هذى العزائم لا ما تدعي القضـب ... وذى المكارم لا ما قالت الكتـــب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبـــت ... تعثرت خلفها الاشعار والخطب

ويأخذ بعضا من تشبيهات ابي تمام ويعيد سبكها •

يقول ابو تمام :

أبقيت جد بني الاسلام في صعـــد ... والمشركين ودار الشرك في صبـب

ويقول القيســراني :

سما عليها سمو الماء ارهقـــــه ... انبوبة في صعود اصلها صبـــب

ويأخذ معانيه ايضا ، يقول ابو تمام :

هيهات ، زعزعت الارض الوقور بــه ... عن غزو محتسب لا غزو مكتســـب

ويقول القيسراني :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتســـبا ... من الملوك فنور الدين محتســـب

ووصف المعركة يغدو عند القيسراني في هذه القصيدة اكثر صخبا واوقـــع تأثيرا ، فيه الكثير من الحركة والقوة :

والخيل من تحت قتلاها تقر لهـــا ... قوائم خانهن الركض والخبـــب

والنقع فوق صقال البيض منعقـد ... كما استقل دخان تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركة ... لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس لـه ... سوى القسي وايد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقتـه ... كانما الضرب فيما بينهم ضرب
وللاسنة عما في صدورهـم ... مصادر أقلوب تلك ام قلب

ويضفي على صورة الانتصار وهزيمة الفرنج ظلالا من المبالغة يجعلها تبدو حدثـا يفوق ايام العرب المجيدة :

كانت سيوفهم اوحى حتوفهـم ... يا رب حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهـم ... ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهـم ... مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
انباء ملحمة لو أنها ذكـرت ... فيما مضى نسيت ايامها العـرب

والدعوة فيها الى الجهاد اوضح واظهر ، دعوة نابعة من زهو الشاعر بما حققـه نور الدين من فتوحات لم تراود خيال الناس ، واذ حققها نور الدين فلينهض الى الغاية الكبرى ـ اخذ بيت المقدس وتحرير الساحل من الغاصبين :

كنا نعد حمى اطرافنا ظفـرا ... فملكتك الظبى ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلهـا ... كان تسليم هذا عند ذا جـرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمـق ... كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب ... يوليك اقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله ... فانما انت بحر لجه لجـب
يا من اعاد ثغور الشام ضاحكـة ... من الظبى عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعهـا ... حتى اقمت وانطاكية حلـب
حللت من عقلها ايدى معاقلهـا ... فاستجفلت والى ميثاقك الهـرب
وايقنت انها تتلو مراكزهـا ... وكيف يثبت لا جوف ولا طـنب

أهم المظاهر البديعية في شعره

مال القيسراني الى اعتماد انواع من البديع في شعره ، وكان اكثر ما أخذ بالتجنيس والتطبق ، يقول ابن القلانسي ان القيسراني "كثير التطبيق والتجنيس" (١) ، ويقول العماد عنه "صاحب التطبيق والتجنيس وناظم الدر النفيس" (٢) .

والحق ان القيسراني اولع بالجناس فكثر وروده في شعره ، وقد نسب اليه ابو المعالي الكتبي قصيدة يطغى عليها استعمال الجناس ، منها (٣) :

نافرته البيضاء في البيضاء وانفصال الشباب فصل القضاء
حاكمته الى معاتبة الشيب لتستمطر الحيا بالحياء
فاستهلت لبينها سحب عينيه ويوم النوى من الانواء
.....
من مساع اذا عقدت على الشهب رهانا جازت مدى الجوزاء
وسماح اذا استغاث به الآمل لبى نداه قبل النداء

وقد عمد القيسراني الى انواع الجناس المختلفة ، فأخذ بالجناس الكامل :

.....
أترى ضم خطيبا منك ام ضمخ طيبا (٤)
.....
واحيائي وقد مررت بعم من مسيحية دعتني بعمي

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢
(٢) الخريدة ١ : ٩٦
(٣) المصدر نفسه ١ : ١٢٣
(٤) وفيات الاعيان ٤ : ٨٣ وشذرات الذهب ٤ : ١٥٠

واعجب ما القاه في الحب انني ... اسير وقلبي في العراق أسير

.....

اين الألى جمعتهم والنوى دار ... حاروا فهل أنت لي من ظلمهم جار

.....

بلاد اذا الذئب امسى بها ... طوى ليله يتشكى الطوى
واذهلني الوجد عنها فما ... ذكرت سوى عهدكم في سوى

.....

يا خليلي أحبن بانت دموعي ... عن شؤوني سألتني عن شؤوني

.....

ولما دنا التوديع قلت لصاحبي ... حنانيك سر بي عن ملاحظة السرب
اذا كانت الاحداق نوعا من الظبا ... فلا شك ان اللحظ ضرب من الضرب

.....

واهوى الذى اهوى له البدر ساجدا ... ألست ترى في وجهه أثر الترب

.....

وبات لا تحتمي عني مراشفه ... كانما ثغره ثغر بلا وال

وله ابيات يجانس فيها بين اربع لفظات :

في مقاديمها تصاب المقاديم ... وترمى الاكفال في الاكفال

.....

عذابي في الثغور من الثغور ... وفي نحر العدو من النحور

.....

وفتح حديث في السماع حديثه ... شهي الى يوم المعاد معاده

وعمد الى الجناس الناقص :

وتكلمت عنها الجفون فلو ... حاورتها لاجابك الحور

.....

واسبق عذارك باعتذارك قبل ان ... يأتي بعزل هواك منه ملطف

.....

مررنا بجو فهاج الجوى ... على مهجة شرقت بالنوى

.....

يئس العذول فكف من غلوائه ... حتى شككت أعاذلي ام عاذري

.....

ما زلت تغلى بنات الحمد مشتريا ... حتى غدوت وللاشعار اسعار

ومنه في المجانسة بين اربع لفظات :

عقائل تخشاها عقيل بن عامر ... كواعب لا تعطي الذمام على كعب

ولقد لجأ الى المطابقة :

.....

كنت جهلا فيما مضى احسد الاحيا ... فاصبحت اغبط الامواتا

مذ عرفت الايام لست ابالي ... اى شيء عاصى يدى ام واتى

.....

فيا نسيم الخزامى هب الى سحرا ... لعل نشرك مطوى على خبر

.....

ارخصت ودى لمن يغلي مساومتي ... سماحة فانا المسترخص الغالي

.....

وفي المسافة من دون النجاة لهم ... طول وان كان في اقطارها قصر

.....

فلا مطلق الا وشد وثاقه ... ولا موثق الا وحل صفاوه

.....

في كل يوم ينثني سيفه ... ببلدة بكر وأخرى عوان

ومن انواع البديع التي يعمد اليها ــ التقسيم :

ان قاتلوا قتلوا او حاربوا حربوا او طاردوا طردوا او حاصروا حصروا

.....

كريم سمت اوصافه لعفاته ترى ان كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى ونجواه والدنيا وتقواه والزهد

وهو في استعاراته بتشبيهاته يأتي بها احيانا قريبة سهلة كما في قوله :

وبدر من الشعر في غاسق يضاحك ابيضه اسوده

غير انها في معظمها تخرج الى البعد والتعقيد كقوله :

واظن خدك مذ تخوف نهبه ضرب السياج على حديقة ورده

.....

فتى خطب الزلفى فاجزل مهرها تقى ورأى الدنيا بغيا فطلقا

.....

يا فضل ما للفضل هيض جناحه فبدت زمانته وضاع زمانه

.....

ولع باسهم فكره فاذا رمى اصمى بها غرض المدى المتباعد

.....

جرت بالنصر اقلام العوالي وليس سوى النجيع لها مداد

.....

وانت الحلي على المكرمات فلا وصفت انها عاطل

.....

ظفر كمال الدين كنت لقاحه كم ناهض بالحرب غير محارب

.....

وانكرت لوءلوء الاحفان حين طفا منها على لجة غواصها غرق

.....

لقائح افكارى تمادى نتاجها فأولدها هذا الكلام المولد

وهو في كل انواع البديع التي لجأ اليها ، لم يسرف كثيرا ولم يبد عليه التكلف السقيم ، بل انه في معظم جناساته كان مجليا ، ويبدو واضحا انه اعتمد البديع اكثر ما اعتمد في مقطعاته ومدائحه ، بينما قلّ نسبيا اعتماده عليه في القصائد التي يدعو فيها الى الحرب وجهاد الفرنج .

وللقيسراني بعض القصائد والمقطعات التي قالها ارتجالا منها المقطوعة التي قالها في غلام في مجلس ضمه وابن منير ، والمقطوعة التي قالها في وصف البركة بين يدى تاج الملوك — وقد أشرنا اليهما . ومنها قصيدته التي قالها في مجلسه وعملها على وزن قصيدة لابن هانىء ، ومطلعها :

ارأيت ما فعلت بنا الصهباء من حيث تسبي العقل وهي سباء

والمقطعة التي قالها بديها وقد مر بالباب (١) :

أما لك رقى سرح الطرف غاديا على اهل بطنان سقتها سحابها

حدائق للاحداق فيها لبانة يعيد لنا شرخ الشباب شبابها

وان كنت تبغي بابك الخير مدخلا الى جنة الفردوس فالباب بابها

---

(١) تاريخ حلب : ١٧٤

آراء النقـاد في شعره

اتفق المؤرخون على تقدمه على شعراء عصره. يقول فيه ابن القلانسي: "كان اديبا شاعرا مترسلا فاضلا بليغ النظم مليح المعاني" (١).

والسمعاني: "أشعر أهل الشام" (٢).

والعماد: "فكأنهما (القيسراني وابن منبر) جرير العصر وفرزدقه وهما مطلع النظم ومشرقه وشى بالشام عرفهما" (٣)، و "كان (ابن قسيم الحموى) ثالث القيسراني وابن منير في زمانهما وسبقهما في ميدانهما نبغ في عصر شيخوختهما وبلغ الى درجتهما وراق سحرهما سحره وفاق شعرهما شعره" (٤).

وياقوت: "كان شاعرا مجيدا واديبا متفننا" (٥).

وابو شامة: "وكان في دولته (دولة نور الدين) شاعرا زمانه ابوعبد الله محمد بن نصر بن صغير، وابو الحسن احمد بن منير ولهما فيه اشعار فائقة" (٦)، "ولو كانا ادركا ذلك (فتوح نور الدين بعد موتهما) لأتيا في وصفه بعجائب مع انه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما" (٧).

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ٣٢٢
(٢) الانساب: ٤٦٨ و
(٣) الخريدة ١: ٧٩
(٤) المصدر السابق ١: ٤٣٣
(٥) معجم الادباء ١٩: ٦٤
(٦) الروضتين ١: ٤٤ (تحقيق حلمي)
(٧) المصدر السابق ١: ٥٧ (تحقيق حلمي)

وابن خلكان : "وكان من الشعراء المجيدين والادباء المتفننين" (١) . واليافعي : "الشاعر المشهور ومن الشعراء المجيدين والادباء المتفننين" (٢) .

والنعيمي : "حامل لواء الشعر في زمانه" (٣) .

وابن العماد الحنبلي : "حامل لواء الشعر في عصره" (٤) .

---

(١) وفيات الاعيان ٤ : ٨٢
(٢) مرآة الجنان ٣ : ٢٨٧
(٣) الدارس ٢ : ٣٨٨
(٤) شذرات الذهب ٤ : ١٥٠

خاتـــــــمة

لقد كان الغرض من هذه الدراسة ابراز صورة لشاعر لم ينل قسطا — ولو ضئيلا — من البحث .

وفي محاولتي جلاء هذه الصورة عمدت بادئ ذي بدء الى تصوير العصر الذي عاش فيه القيسراني — ليكون هذا مدخلاً الى دراسة الشاعر. فدرست الحياة السياسية في منطقتي الشام والموصل في الفترة التي سبقت بداية الحملة الصليبية الاولى واثناء تلك الحملة وذهبت الى انها كانت فترة مضطربة سياسيا يعود اضطرابها الى عوامل ثلاثة كبرى : تنابذ امراء الممالك والمدن المختلفة وتنافرهم ، وما جره هذا التنابذ من ويلات على البلاد كانت سببا في احداث البلبلة واضطراب حبل الامن وازدياد اخطار التنقل من مكان الى آخر ، والخطر الخارجي ممثلا في الصليبيين الذين اجتاحوا الشام واخذوا الكثير من مدنه وحصونه واسسوا فيها ممالك وامارات ، وما نتج عن هذا الفتح الصليبي من متاعب سياسية واقتصادية كان ابرز ملامحها تلك الاتاوات التي كانت تفرض على الاهالي فتستغرق اموالهم وما حل بالمدن والحصون والمحاصيل الزراعية من خراب ودمار ، والخطر الداخلي ممثلا في الباطنية الذين كان لهم اثر كبير في احداث البلبلة بما قاموا به من اغتيالات شملت عددا من رجالات البلاد وما اضروا به بتعاونهم مع الفرنج واضطرار الامراء الى توجيه بعض جهدهم الى حربهم .

ثم اشرت الى قيام دولة الاتابكة وما تم على يدي قطبيها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من اعمال كانت بداية النهاية للفتح الفرنجي .

وانتقلت الى تصوير الحياة الاجتماعية في تلك الفترة فنوهت بظاهرتين باديتين فيهما هما الترف وتفاوت العادات والتقاليد بين مدينة واخرى تبعا لوقوعها تحت سيطرة العرب أو الفرنج . وحاولت وضع اطار عام لحياة الناس آنئذ ، اطار يضم في ثناياه جوانب كثيرة من حياتهم ، في النزهات التي كانوا يقومون بها ، والهوايات الشائعة بينهم آنئذ كلعب الشطرنج والصيد ولعب الكرة ، والعادات والتقاليد التي تقيد سلوكهم ؛ طريقة مشيهم ومصافحتهم ومخاطبة واحدهم للاخر ، وافراحهم واتراحهم ، واحتفالهم بالاعياد ومواكبهم ، واكرامهم للغرباء ، وعلاقات الجنسين واختلاطهما عند المسلمين والفرنج ، ووصفت بيوتهم واسواقهم ومدارسهم وبيمارستاناتهم وما زاولوه من نشاط ثقافي كانت أشد جوانبه ظهورا تفوقهم على الفرنج في الطب.

وحاولت رسم صورة عامة للشعر فأشرت الى تفرقه في المصادر المختلفة وشيوعه بين طبقات مختلفة من الناس، وما بلغته اعطيات الشعراء ومدى علاقتهم بممدوحيهم . وبحثت اغراضه التي لم تخرج عن الاغراض المعروفة فيما سبق ونظرت بشيء من التفصيل في احد مظاهر الشعر البارزة في هذه الفترة وهو شعر الجهاد الذى تميز — في الشكل والموضوع — عن ما نظم في اغراض اخرى ، ونوهت بميل الشعر الى الصناعة اللفظية التي بلغت حد الاسراف والتكلف عند بعض الشعراء بينما اكتفى آخرون باعتماد البديع دون اسراف ، وعرضت للنشاط الادبي .

وقد ضم الكتاب الاول ترجمة مسهبة للقيسراني جهدت في بنائها معتمدا على شعره وعلى الاخبار القليلة المتناثرة التي استطعت الوصول اليها في كتب المصادر ، حققت فيها اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ، وتتبعت مراحل حياته منذ مولده في عكا ، ونشأته في قيسارية الى رحلته لدمشق حيث طلب على ابن الخياط الشاعر وتخرج به ، ورحلته الى العراق واتصاله بسديد الدولة ابن الانبارى كاتب الديوان العزيز ، وعودته الى دمشق ثم خروجه الى حلب اثر

تنكر متولي دمشق له ، وحياته في حلب واتصاله بامراء ووزراء وقضاة الدولة الاتابكية ، ثم دخوله انطاكية وما نتج عن تلك الرحلة من الشعر ، ثم اسهبت في تصوير حياته في ظل نور الدين ، وعودته الى دمشق في اواخر حياته ، وموته فيها . ثم عقدت فصولا قصيرة ضمنتها الحديث عن حياته العائلية وابنه خالد وزير نور الدين واحفاده وما رقوا اليه من مناصب في دولة الايوبيين والمماليك ، وعن اساتذته وثقافته وتلامذته ، واشرت الى تنوع ثقافته وشمولها ، وعرضت لصلاته ببعض المعاصرين له من الادباء والعلماء استكمالا لجوانب شخصيته التي افردت فصلا للعناصر البارزة فيها كما تتجلى من حياته وشعره .

وضم الكتاب الثاني دراسة لشعر القيسراني مهدت فيها بالحديث عن ديوانه وتفرق شعره ورواة ذلك الشعر ، وجعلت المدخل الى دراسة الشعر النظر اليه من زاويتين ، ابصرت في الاولى مدى صلته بالذوق النقدى العام في عصره ، ذلك الذوق الذى كان آخذا باسباب الاتجاه النقدى الذى تبلور في عصور سابقة دون تغيير ظاهر . ولتبيان ذلك اخذت كتابي "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي و "البديع" لاسامة بن منقذ ونظرات العماد النقدية بالتحليل ، وعرضت لموقف القيسراني من هذه المقاييس .

وابصرت في الثانية موضع شخصيته الشعرية بين الشعراء البارزين في عصره ، فعقدت مقارنات بينه وبين ابن الخياط استاذه ، وبينه وبين اسامة بن منقذ وكان ممدوحا له ، وبينه وبين العرقلة ذى الشخصية الطريفة والشعر الحاد ، وبينه وبين ابن منير رصيفه ومعارضه ومنافسه . وخرجت من ذلك بان شخصية القيسراني الشعرية تكاد تكون هادئة مستوية لا تعقيد فيها ، شخصية الشاعر "المحترف" الذى تقيده المواضعات الشعرية والاجتماعية معا .

وفي دراسة شعره من حيث الموضوع حصرته تقريبا في اتجاهين ، اتجاه فردى يشمل مقطعاته في الحنين — التي قالها حين ذهب الى العـــراق ، ومقطعاته التي قالها في انطاكية متأثرا بالبيئة المسيحية الجديدة ، ووصفـــت هذه جميعا بانها نوع من "التأليف" لجأ اليه الشاعر ليسجل خواطـــــره وتجاربه طلبا للتفرد بين معاصريه من الشعراء . واتجاه عام يحتوى معظـــــم شعره ، ويضم قصائد المدح وقصائد الحرب والجهاد . وبينت انه يتبـــــع منهجا لا يحيد عنه في المدائح العادية بينما اتخذت قصائده الجهاديـــة وجهة اخرى ضاع منها الشكل التقليدى واختفت فيها المقدمة الغزليــــــة .

ثم عقدت فصلا المحت فيه الى اهم المظاهر البديعية فـــي شـــــعره وهي الجناس بانواعه ، والطباق ، والتقسيم ، والاستعارة .

وانهيت الحديث بايراد طائفة من آراء الاقدمين فيه ، آراء اتفقـــــت جميعها على تقديمه واعلاء شـــأنه .

المصـــادر والمراجـــع*

أ ـ المخطوطـــة :

١) ديـوان محمـد بـن نصـر بـن صغـير القيسـراني
رقم ١٤٨٤ ادب ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة

٢) كتـــاب الانســـاب
لعبد الكريم بن محمد السمعاني
Reproduced In Facsimile From The Manuscript In The British Museum ADD. 23355 With An Introduction By D.S.Margoliouth, Leyden, 1912.

٣) تاريـــخ دمشـــق
لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر
المجلد ٤٠ رقم ١٠٤١ تاريخ ـ دار الكتـــب المصرية بالقاهرة

٤) التذكـــرة
لابـــن العديـــم
رقم ٨٠٦٩ ادب ـ دار الكتب المصرية بالقاهـرة

٥) ورقات من شعر القيسراني في نهاية مخطوطة كتاب" المنظوم والمنثور" ابـن طيفـــور
British Museum OR ADD. 18532

ب ـ المطبوعـــة :

٦) ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزى
بتحقيق محمد عبده عزام
دار المعارف بمصر ، ١٩٥١

* مرتبة بحسب سني وفاة مؤلفيها .

٧) كتاب نسب قريش
لابي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى
تحقيق ا٠ ليفي بروفنسال
دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٣

٨) ديوان المتنبي
بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام
لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤

٩) تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء
بتحقيق الدكتور زاهد علي
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، ١٩٣٢

١٠) مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة ابي تمام
بتحقيق الدكتور شكرى فيصل
مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ٠ج ١ م٢٧ –
كانون الثاني ١٩٥٢

١١) ديوان مهيار الديلمي
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٥

١٢) شرح التنوير على سقط الزند
لابي العلاء المعرى
الجزء الاول والثاني، طبعة ابراهيم حليم، مطبعة المعارف بمصر

١٣) ديوان ابن ابي حصينة المعرى
بتحقيق الدكتور محمد اسعد طلس
مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٦

١٤) سفرنامه
كتبه باللغة الفارسية ناصرى خسرو علوى وترجمه الدكتور
يحيى الخشاب
مطبوعات معهد اللغات الشرقية – كلية الاداب –
جامعة فؤاد الاول، القاهرة ١٩٤٥

١٥) ديـوان ابـن الخيـاط
بتحقيق خليل مردم بك
مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٨

١٦) ذيـل تاريـخ دمشـق
لابن القلانسي ، ابي يعلى حمزة بن اسد
مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨

١٧) رحلـة بنيامـين
لبنيامين بن يونة التطيلي النبارى الاندلسي
ترجمها عن الاصل العبرى عزرا حداد
بغداد ، المطبعة الشرقية ١٩٤٥

١٨) كتـاب الاعتبـار
لمؤيد الدولة ابو المظفر اسامة بن مرشد بن منقذ
بتصحيح هرتويغ درنبرغ
ليدن ، ١٨٨٤

١٩) ديـوان اسـامة بـن منقـذ
بتحقيق الدكتور احمد احمد بدوى وحامد عبد المجيد
وزارة المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣

٢٠) كتـاب البديـع
لاسامة بن منقـذ
بتحقيق الدكتور احمد احمد بدوى وابراهيم الابيارى
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦١

٢١) خريـدة القصـر وجريـدة العصـر – قسم شعراء الشام
للعماد الاصفهاني الكاتب
بتحقيق الدكتور شكرى فيصل
المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٩

٢٢) بدائع البدائه
لعلي بن ظافر الازدى
بهامش كتاب " شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص" لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد العباسي ٠
المطبعة البهية ، مصر ١٣١٦ هـ ٠

٢٣) رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية ــ عصر الحروب الصليبية
بتحقيق الدكتور حسين نصار
مكتبة مصر ، ١٩٥٥

٢٤) معجم الادباء لياقوت
بتحقيق احمد فريد رفاعي
مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨

٢٥) معجم البلدان لياقوت

٢٦) كتاب الكامل في التاريخ
لعز الدين ابي الحسين علي بن ابي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير
ليدن ، بريل ١٨٩٤

٢٧) تاريخ الدولة الاتابكية ــ ملوك الموصل
لابن الاثير
في Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux V.II, Part II.

٢٨) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر
لضياء الدين نصر الله بن الاثير
بولاق ، ١٢٨٢

٢٩) اخبار العلماء باخبار الحكماء
للوزير جمال الدين ابي الحسن علي بن القاضي الاشرف يوسف القفطي
عني بتصحيحه محمد امين الخانجي
طبع على نفقة عبد الرحمن بدران ، ١٣٢٦هـ

٣٠) مـــرآة الزمـــان
لسبط ابن الجوزى يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله ابي
المظفر شمس الدين
دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكـــن ،
الهند ، لا ٠ت٠

٣١) زبدة الحلب من تاريخ حلـب
للمولى الصاحب كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد بن
هبة الله بن العديم
بتحقيق الدكتور سامي الدهان
دمشـــق ، ١٩٥١

٣٢) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية
لشهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف
بابي شامة
أ) بتحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد
الجزء الاول ـ القسم الاول
القاهرة ، ١٩٥٦
ب) مطبعة وادى النيل
القاهرة ، ١٢٨٧ هـ

٣٣) عيـون الانبـاء فـي طبقـات الاطبـاء
لموفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس
السعدى الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة
دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٦

٣٤) وفيـــات الاعيـــان
بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
القاهرة ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠

٣٥) مفـرج الكـروب في اخبـار بـني ايـوب
لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل
بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال
مطبعة جامعة فؤاد الاول ، ١٩٥٣

٣٦) المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ ابي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد الدبيثي
انتقاء محمد بن احمد بن عثمان الذهبي
الجزء الاول بتحقيق الدكتور مصطفى جواد
بغـداد ، ١٩٥١

٣٧) الوافـي بالوفيات
لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى
ج ١ بتحقيق هـ . ريتر
استانبول ، ١٩٣١
ج ٢ ، ٣ ، ٤ بتحقيق س. ديدرينغ
ج ٢ : استانبول ، ١٩٤٩
ج ٣ ، ٤ : دمشق ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩

٣٨) امـراء دمشـق فـي الاسـلام
لصلاح الدين الصفدى
بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد
دمشق ، ١٩٥٥

٣٩) الغيـث المسجم فـي شـرح لاميـة العجـم
لصلاح الدين الصفدى
المطبعة الازهرية المصرية ، ١٣٠٥ هـ

٤٠) مـرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
للشيخ الامام ابي محمد عبد الله بن اسعد بن علي بـن سليمان عفيف الدين اليافعي
حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧ هـ

٤١) طبقـات الشـافعية الكـبرى
لتاج الدين ابي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي
ملتزمه : مولاى احمد بن عبد الكريم القادرى الحسني
المطبعة الحسينية ـ الطبعة الاولى

٤٢) البداية والنهاية في التاريخ
لعماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير
مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ

٤٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
لجمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٨

٤٤) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب
لابن الشحنة
بيروت ، ١٩٠٩

٤٥) الدارس في تاريخ المدارس
لعبد القادر بن محمد النعيمي
بتحقيق جعفر الحسني
دمشق ، ١٩٤٨

٤٦) شذرات الذهب في اخبار من ذهب
لابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ

٤٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر
هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بن بدران
دمشق ، ١٣٣٠ هـ